67



قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

رائحة الدم

دكتور مصطفى محمود

25 June 2010
Riyadh
KSA





منتديات مكتبتنا



الدكتور مصطفى محمود

رائحة الدم

الحصان

الخواجه ديمترى تاجر كبير .. رأسماله مليون جنيه .. وهو يذهب كل يوم إلى البورصة ليبيع كل شىء .. حتى ذمته .. إذا وجد أنها صفقة رابحة ..

وهو عضو فى عدة شركات .. ومتعهد لعدة أصناف نادرة .. ومالك لمخازن غنية بالبضائع الحرة الخارجة عن التسعيرة من الصوف الإنجليزى الفاخر إلى الحديد الخردة ..

وهو يقول دائماً إنه غلبان .. ومديون .. لأنه يتوسع .. ويتوسع.. باستمرار .

- أنا مسكين أعمل إيه .. عشان أخسر فى بيع الخيش بقلب .. لازم أكسب فى بيع الحديد .. التاجر مننا غلبان يا حبيبى طول عمره عايش على كف عفريت ..

وديمترى ليس له قلب ..

إن قلبه هو البورصة .. إذا ابتسمت له البورصة ابتسم بدوره للتجار الصغار وبسط لهم يده وخفض أسعاره .. وإذا كشرت له البورصة كشر بدوره للتجار الصغار وعضهم بنابه حتى أدماهم.

■ ■ ■

وقد طالعته البورصة اليوم بتكشيرة عريضة فأحس بأنه لا يستطيع أن يحب التجار كما تعود أن يحبهم كل يوم .. وشعر برغبة لا تقاوم فى رفع سعر الحديد الخردة الذى يملكه فى المخزن .. وخط فى نوتته عدة أرقام بالقلم الرصاص ..

وفعلت الأرقام فعلها .. وبلغ أثرها خواجة آخر صغير يتاجر فى نصف مليون جنيه فقط ..

وكشر الخواجه الصغير بدوره ورفع سعر الصفيح .. وقال وهو يلوح بذراعيه لكل مَنْ يقابله :

– أنا أعمل إيه .. أنا غلبان .. أنا نفلس إذا كنا نبيع بزى الأول شوف الحديد الخردة بكام .. شوف الحديد الألواح بكام ..

وانتقل الأثر من تاجر إلى تاجر حتى بلغ البك الذى يبنى عمارة على الكورنيش ..

وجد البك نفسه أمام فاتورة مفزعة ..

كمرات حديد .. أسياخ صلب .. أسمنت .. طوب .. مونة حجارة، وخام ، جبس ، صاج ..

ولم يجد مَنْ يصب عليه نقمته سوى السكان فرفع الإيجارات إلى الضعف .. وضغط على نفقات المقاولين .. ثم استرخى فى النهاية على الكرسى الوثير تحت الأباجورة فى منزله العامر وتمطى وطرقع مفاصله وقال فى تعاسة :

– أعمل إيه .. أنا غلبان .. شوف الطوب بكام .. شوف الأرض بكام .. شوف شوال الزلط بكام .. شوف الجير بكام ..

■ ■ ■

وكان آخر مَنْ بلغته الدوامة هو عم بيومى العربجى الذى خرج بعربته الكارو سارحاً على باب الله فصادفته شيلة مغرية هى حمولة مواسير ينقلها من القلعة إلى شارع الكورنيش حيث تقوم عمارة البك بأدوارها العشرة ..

وفرك عم بيومى يديه بحلاوة الاستفتاح وبدأت المساومة .. وكانت مساومة قاسية ..

ولم يدرك بيومى أن عليه أن يدفع كل فروق الأسعار التى ظلت

تنتقل من تاجر إلى تاجر ..

ولم يرهق ذهنه بالتفكير فقد كان عاطلا وفى حاجة إلى قرش فقبل الشيلة بنصف أجرها .. وبدأ يصف المواسير ماسورة ماسورة على العربة .. ثم نظر إليها بعد أن اكتملت وطرقع بكرباجه .. وكان يشعر أنه مغبون وأنه مسكين جداً .. جداً .. ولم يجد أمامه سوى الحصان فهوى بكرباجه على جسده وهو يصرخ..

– هيه .. يالله .. هم .. هم .. هيه .

وجذب الحصان نفسه إلى الأمام ، ثم تقهقر فى ضعف وتخاذل ، وكان الحصان هزيلا متقطع الأنفاس ولم يكن قد أكل فى ذلك اليوم إلا حفانا صغيراً من الشعير هو كل ما يملك عم بيومى من طعام .. ولسعه بيومى لسعة أخرى على أضلاعه .. وكان الكرباج هذه المرة حامياً فألقى الحصان بنفسه إلى الأمام وراح يخلع سيقانه خلعا من الأرض وهو يلهث ..

وتزحزح خطوتين .. ثم ثلاث خطوات .. ثم بدأ يسير وقد تدلى لسانه .. وما كاد يقطع مائة متر حتى فقد توازنه وسقط على الأرض كومة من اللحم .. وما لبث أن أسلم الروح ..

وتجمع حوله المارة القليلون فى هذا الوقت المبكر من الصباح

وكـانوا كلـهم يشـتـمـون العــربجي .. وكـان العـربجـى يبـكى كالطفـل .. أما الحصــان الميت فكان مطروحاً علـى الأرض وعيناه إلى الســماء .

لقد حـمل المجتـمع كله على ظهره .. بما فـيه من تجـار وملاك وعمال .. مائة متر إلى الأمــام .. ثم سقط تحت ثقله .. وفقد حياته دون أن يقدم بها فاتورة حساب ..

الشيء المجهول

يستوى أى وقت وأى يوم وأى فصل من فصول العام ، وأى سنة من سنى العمر .. فالكل نسخ متشابهة لأصل واحد ولا شىء غير التكرار . التكرار الممل .. فحياته تسير .. بلا جديد .. الغد فيها مثل الأمس والحاضر كالماضى .. لا عمق فى أحزانه ولا عنف فى مسراته .. لا ضحكات ولا دموع .. وإنما بسمات صفراء .. وأشجان عابرة لا تهز القلب ..

وإنه ليستطيع أن يتنبأ بما سيحدث كما تتنبأ المراصد بحركات النجوم .. لأن تتابع حياته أصبح آلياً يحكمه قانون جامد صارم لا روح فيه ..

هو سيفتح باب العربة القديمة ويتهيأ للنزول .. فينبح الكلب .. ويقف البواب العجوز يتثاءب ويؤدى التعظيم .. هو سيطأ الممر

المرصوف بالحصى ويصعد الدرجات الخمس ويضغط على الجرس .. فيطل الخادم الأصلع الذى يؤدى نفس الدور من عشرين سنة .. ليفتح الباب .. ويجرى خلفه وهو يعرج .. ويضىء نور غرفة النوم .. ويمسك قطع الأثاث .. واحدة بعد أخرى بنفس الترتيب فهو يبدأ بالشماعة ثم بالكرسى ثم بالدولاب .. ثم يقف بعد هذا كالتمثال يتلقى المعطف والجاكتة وباقى الثياب قطعة قطعة.. يعلقها على المشجب ، ثم يفتح فمه قائلا نفس الكلمات ..

– العشاء جاهز يا سيدى .. هل تريد شيئاً ؟

فيجيب نفس الإجابة :

– لا .. وشكراً ..

وتمر عشر دقائق بالضبط وتتيقظ زوجته فتتمطى وتتثاءب وتجلس .. ثم تقف فى روب النوم .. لتقول الجملة التى لا تتغير :

– لقد تأخرت كثيراً هذه الليلة .. إن هذا السهر يؤثر فى صحتك ..

فيقول فى جفاف كالعادة :

– إن صحتى ملكى .. وأنا حر أفعل بها ما أشاء وقد نبهت ألف مرة بألا يعود الكلام إلى هذا الموضوع .

ويحـاول أن يغضب فى صـدق وحرارة .. ولكن هذه الحـرارة تنطفىء ، وتتحول إلى مجرد ضجـر ، وتخونه الكلمات فيسكت .. ويسرح الطرف إلى النافـذة المفتوحـة حيث الفضاء وحـيث المئذنة المضيئة وخـفقات الطاحون تطفو وتغرق فى نقنـقة الضفادع إلى الصورة المعلقـة بالجدار إلى وجه زوجتـه الفاتن .. فتعجـز الفتنة ويعجز الجـمال ويعجز الشعر الأثيث الفـاحم والعينان السوداوان والوجه المستطيل والقوام الشـمعى .. ويعجز كل هذا عن أن يحرك فـيـه سـاكناً .. وكأنما الـعواطف قـد ماتت واندثرت فى مـقبـرة العادة ..

أين يذهب ضحك الطفـولة الذى كان يجلجل كالجـرس الفضى وقد خرج من حبة القلب فاهتز له الجسم كله .. وأين ذهبت أحلام الصـبا .. التى كـانت تبعث الـدمع يتلألأ فى العـين .. أين رجفـة الأمل.. ورعـشـة الخـوف .. وتوثب الإرادة .. أين الـلحظات ؟ كل لحظة منها جديدة مـفعمة بالشعور طافحـة بالحياة .. أين الحب .. أين السعادة .. أين الحزن العظيم .. أين الفرح العظيم ؟

إنه يملك ما يحـلم به الناس .. يملك امرأة جمـيلة وفيـلا وعربة وثقافة ومالا وفراغاً .. وكل شىء .. فما باله لا يحس بشىء ..

وتجثـم عليه هذه الخـواطر كالكابوس .. وفى خـلالها يسـمع زوجته وهى تروح وتجىء قائلة :

– لقد سخنت الحساء يا عزيزى .. وجهزت المائدة ..

فتغثى نفسه دون أن يرى هذا الحساء .. أو يسأل أهو حساء السمك أو حساء اللحم أو حساء الخضار .. ويتقلص حلقه .. وقد تهيأ ليرفض أى شىء .. حتى الماء القراح .

يجب أن يكون فى حياته شىء جديد .. يجب أن يفتح مصراعى هذه الوحدة كل أسبوع ليستقبل عدداً من أصدقائه فى ليلة صاخبة تمتلىء بالطعام والشراب والإشاعات والحديث والثرثرة .. فهذا الحساء الذى يتذوقه لسان واحد شىء آخر غير نفس الحساء الذى تتذوقه عشرات الألسن ..

■ ■ ■

أكانت فكرة صائبة ..

لقد فتح مصراعيه ليلة الخميس من كل أسبوع لأصدقائه يأكل ويشرب ويثرثر معهم ، ولكنه ازداد تأكيداً من فشله .. وقد رأى نفس الملال ونفس الضجر يطل من خلف العيون الآخرى .. فهى تضحك .. وتبتسم .. وتصغى .. وتتحمس .. ولكن الافتعال يطل من خلفها جميعاً ، فالضحكة لا تلبث أن تخفت وتحتبس فى حلق صاحبها ، وتحل محلها حيرة تستدير الشفقة .. والحماسة

تنطفىء وتخبو وقد وجدت أنها لم تجتذب الأسماع .. وشيطان التكرار يطبع كل طرافة بطابع العادية ، ويجعل من كل شخص آلة لها قوانين تحكمها .. فالذى يبكر بالحضور .. يبكر دائماً بالحضور والذى يتأخر .. يتأخر على طول الخط .. حتى ليستطيع أن يتنبأ بالاسم من دقة الجرس .. فإذا فتح الباب فلكل شخص مشية لا يغيرها ، وتحية لا يبدلها .. فالذى يعانق ويقبل يفقد كل طرافته حينما يعاود فى المرة التالية نفس القبل والعناق والأشواق. فإذا جلس .. فليس جديداً أن يضع ساقاً على ساق ، أو يطرق المائدة بأنامله .. أو يتحسس شهره .. أو يتطلع فى المرآة .. فكلها أفعال آلية خالية من الجدة والاختراع .. والأحاديث نفس الأحاديث والإشاعات نفس الإشاعات .. الأفلام السخيفة .. والجو .. والزكام.. والأطفال .. والحرب .. والفضائح .. والوفيات.. والأزمات .. ثم تثقل العيون وتثقل الألسن .. وتنتهى القصة .. لتعاد بشكل آخر .. وبألسن أخرى .. وعناوين أخرى وتزداد العيون ثقلاً .. والألسن بلادة .. والأفواه تثاؤباً.. ثم تهب الجماعة.. تبسط أكفها بالسلام واحداً بعد آخر .. ويخلو البيت إلا من سحب الدخان الكثيف ، ورائحة الكئوس والزهور والطعام .. وكابوس الملل الرهيب ..

إن بضعة أشخاص يدخلون ويخرجون لم يفعلوا أكثر من أن يكونوا عدة مرايا تنعكس عليها التفاهة والسأم والتكرار الممل ..

إن حياته ينقصها شيء .. شيء لا يعرفه .. شيء كالروح فى الجسد ، فما هو ؟

إنه يقرأ الكتب ويسمع الموسيقى ويخرج إلى الحقول .. ويرتاد المسارح .. ويجرى ساعتين فى الصباح حتى يلهث .. ويصلى أحياناً .. ولكنه لا يصل إلى هذه الروح أبداً .. هذه الروح التى ترسل البسمة مشرقة على الشفتين ، وتبعث حب الحياة يتسلل إلى كل جزء من الجسد حتى أطراف الأنامل ..

إن أشعة الشمس تدق قلبه المغلق ، فلا تجد منفذاً إلى روحه التى ترتجف من البرد ، فهو يعيش فى عزلة .. فى برج .. فى قلعة مسورة لا تصل إليها أصوات الحياة .

إن فى الوردة التى تفتح أكمامها لشعاع الفجر وتدير ثغرها نحو مشرق الشمس .. شيئاً لا يوجد فيه .. فهى تتجاوب مع وجودها الصغير ، فترد ابتسامته بابتسامة ، وإشراقته بإشراقة ، وحركته بإيماءة رشيقة جميلة .. أما هو فلا يتجاوب مع شيء .. وقد فقد صلته بكل الأشياء ، وبدأ يشك فى كل القيم وكل الموجودات .. فالحياة فى نظره لا معنى لها .. لأنها مجموعة مقدرات وأحداث حتمية لا أثر فيها للحرية ، وإنما هى تحدث هكذا لأنها لابد أن تحدث هكذا .. ولا أثر لإرادة الإنسان فيها ، ومن ثم

لا حكمة لوجوده ولا معنى لفـرحه وحزنه وضحكه وبكائه .. ولا معنى لأن يلد وينسل ويتكاثر ليكرر حياة واحدة ونهاية واحدة .

وهو مع هذا يشك فى شـكه ، ولا يخـرج من مأسـاته بغـيـر التخبط وبكابوس من الملل يجثم عليه ليسحقه ويسحق آراءه..

لا بد من عمل شـىء .. إن الضـجر يقتله ..

■ ■ ■

إنها لتجربة .. أن يلعب الإنسـان القمار .. أن يعيش فى تساؤل وتوقع وترقب وأمل ويأس ومـفاجـآت لا تنتهى .. حـيث لا شـىء يتكرر أبداً ..

إنها لتجربة تلهث فيها الأنفاس ..

■ ■ ■

وهكذا بدأ يقتل الضـجر ويقتل نفسـه فى وقت واحد ..

فى غرفـة مغلقـة تموج بالدخان .. كان يجـلس إلى جوار رجل ذى وجه مضلع مـستطيل وأمامهمـا رجل هزيل ضامر .. والورق يدور .. وخـيوط الدخـان تتـصاعـد من أطراف الأصـابع . والمال يتراكم ويختـفى .. والحظ معلق على كلمات مقتـضبة على أطراف

الألسن .. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بمصيره .. ولا أن تجتهد إلا فى حدود .. ولا أن يضع قانوناً للكسب ولا قانوناً للخسارة .. إنما هى الخبط العشواء والقوى المجهولة .. التى تختصر الماضى والحاضر والمستقبل فى ورقات .. وهذه الذبالات الإنسانية تترقب يشعلها فضول لا يحد ..

وتشق الصمت كلمات قليلة .. وينقر الرجل ذو الوجه المضلع على المائدة .. ويعود الصمت يغلف الجميع إلا من حفيف الورق وهو يدور .. والمال وهو يذهب .. والمال وهو يجىء ..

■ ■ ■

إنها لتجربة ..

لقد قتل الملل حقاً ولكن بسلاح من العجز والخيبة . وبثمن باهظ فهو يشحن كل لحظة بجزء من ثروته وعقله وصحته ليجعل منها فى النهاية لحظة جديرة باهتمامه .. كمَنْ يلقى بثيابه وحافظة نقوده وعائلته فى البحر ليصبح النظر إلى البحر بعد هذا مثيراً لا يبعث على الملل ..

لقد أحس بالإفلاس .. أحس بأنه يستجدى الفرح ويستجدى الحزن .. ويفتعل المفاجآت .. ويزيف العواطف .. فأسدل هذا

الوعى الجديد علـى التجربة التى نجـحت ستاراً شـفيـفاً من القلق والشك جعل يستحيل مع الأيام إلى جدار صفيق من اليأس ..

ومع هذا فقـد ظل يقامر ويحتـمى بالعناد والإصرار هارباً من قبضة اليأس التى عرفت طريقها إلى قلبه فجعلت منه قلباً ثقيلاً .. لا يفرح بالكسب ولا يحـزن للخسارة .. ولا يهـتز أمام المفـاجآت ولا يعبأ بتقلب الحظوظ .. قلباً ميتاً بليداً .. راكد الدم ..

لقد فشلت التجربة أخيراً ومات الفضول وبليت الجدة وتحولت البدعة إلى عادة ..

إن لعب الورق لا يعوض الإنسان عن الحـياة .. وليس ارتجاف القلب أمام الكسب والخسارة هو سعادة الوجود التى كان يطلبها.. فإن الطفل ليـرتجف من الفرح ويهتز بدنه كله إذا عـثر على بكرة يدحرجها على الأرض .. بكرة صغيرة فارغة .

إن اللغز مـا زال باقياً والمشكلة على حـالها .. ما زالت حـياته ينقصها شىء يجهله .. شىء غير لعب الورق ..

■ ■ ■

وأوقف عـربته الـقديمـة .. وتهـيأ للـنـزول ، فنبح الكلب وهب البـواب العـجـوز يتـثـاءب ويؤدى التـعظيم .. وسـار على الممر

المرصوف بالحصى وصعد الدرجات الخمس وضغط على الجرس، فأطل الخادم الأصلع .. نفس الخادم الأصلع .. ليفتح الباب ويضيء نور غرفة النوم .. ويمسح الأثاث قطعة قطعة بنفس الترتيب .. ويقول .. إن العشاء جاهز .. ثم تيقظت زوجته لتقول كالعادة .. إنه تأخر فى السهر وإنه يؤذى صحته ..

وكاد يفقد أعصابه هذه المرة ولم تفهم زوجته لصياحه معنى ؛ فهى لم ترتكب جريمة .. أما هو فكان يود لو أنها ارتكبت جريمة حتى تتغير اللعنة التى كتبت عليه كل يوم وذهب إلى المرآة ليقف طويلا .. يتأمل نفسه ..

إن أظافره طويلة .. وشعره ليس حليقاً كما يجب .. وهو يحس بأن حذاءه ضيق .. وصدره ضيق .. وإن الغرفة كلها أضيق من ثقب إبرة .. والعالم الفسيح الأرجاء قبر مظلم رطب يخنق الأنفاس ..

وسمع ضحكة الطباخ تطوف بأرجاء البيت وسمعه يقول لزوجته :

– لقد كنت أبحث عن علبة الثقاب ثم اكتشفت أخيراً أنها فى يدى .. أليس هذا غريباً ؟

وسمع زوجته تشاركه فى ضحكة بربرية وتقول إنه

« مسطول » وإنه سيأتى عليه يوم ينسى فيه أولاده ..

وعجب لهؤلاء السذج كيف يضحكون على مثل هذه التفاهات وسرح الطرف فى الظلام عبر النافذة إلى المئذنة البعيدة والحقول والضفاضع والطاحون .. وما لبث أن ارتدى معطفه وخرج .. هذه المرة بدون عربة .. وإنما على قدميه .. ليضرب فى الظلام الدامس.. لا ينوى على شيء ..

ولعله قد قطع عدة أميال .. وعبر عدة أحياء دون أن يدرى فقد كان مستغرقاً فى أعماق نفسه .. يتوزعه شتيت من الأفكار والخواطر فلا يدرى أين تذهب قدماه وماذا يدور حوله . ولو سئل فيم يفكر .. لأجاب .. لا فى شيء .. فلم يكن فى رأسه شيء.. بالذات .. وإنما تهافت لصور وأحاسيس غير مترابطة تترك خلفها شعوراً ملحاً بالفراغ ..

وأفاق هنيهة ليجد نفسه فى شارع تستعرضه عدة فوانيس حمراء .. وأكوام من التراب .. وخنادق .. وآلات للحفر .. ومواسير.. وحبال .. وبضعة من الآدميين مكومين حول نار موقدة .. يثرثرون ويقضمون قطعاً من الخبز .. يشربون بعدها رشفات من الشاى الأسود ..

وخطر له أن يصغى إلى هذه الثرثرة فترة من الوقت .. فاستند

إلى جذع شجرة وأشعل لفافة من التبغ .. واستغرق يتأمل هؤلاء الناس من خلال حلقات الدخان التى أحاطتهم كالإطار ..

كان المتكلم رجلا ذا سن واحدة فى فمه وشارب كثيف ووجه بارز العظام ملىء بالتجاعيد .. وكان يوجه الكلام إلى شاب نحيل فى مواجهته .. بينما راح الباقون يستمعون وهم يقضمون الخبز ويرشفون الشاى ..

قال وهو يلوح بقبضته فى الهواء :

– أقسم بالله العظيم يا شيخ .. لو استطعت أن أسرق لسرقت . إن الواحد منا يجب أن يعيش .

– صلى على النبى يا راجل .. صلى على النبى .. إنك تعيش فى أمان الله وتأكل وتشرب .. دون أن تحتاج إلى السرقة . ما هذا الكلام ؟

– إنى آكل هذا صحيح .. والكلب يأكل .. وكل مخلوق فى الأرض له رزق .. ولكنى آدمى ليست حياتى كلها خبزاً وإداما .. إن لى ابناً .. ولا أريد أن يحفر ابنى الأرض .. وينزح مثلى المجارى ويدك الأسفلت .. وأن تذهب سبعون سنة من العذاب والشقاء بلا كفارة .. إن الحياة لا طعم لها بلا أمل .. أريد أن أعلم

أن فأسى هيأت الأرض لحياة أصلح .. وأن عرقى لم يذهب عبثا .. أريد أن يكون ابنى متعلما .. يقرأ ويكتب ولا يجلس مثلى على الأرض .. أهذا الأمل حرام على أمثالى ؟

وعاد يلوح بيده وقد اشتعلت عيناه بحماسة متأججة وتوثبت فيهما الإرادة ..

– ومن قال إنه حرام ؟ إن الأمل فى رحمة الله واجب .. وكلنا نعيش على الأمل .. وستحقق آمالنا .. ويعيش أولادنا كما نريد أن يعيشوا .

– كيف يحدث هذا ؟ إن المعجزات لا تحدث فى هذا الزمان . إن العمر محدود يا عمى .. وقد شخت وانحنى ظهرى .. وأصبحت أيامى على الأرض محدودة .. وستتكرر المأساة .. ويعيش أولادى وأحفادى كما عشت .

وأطرق صامتاً برهة وقد وضع رأسه بين كفيه ، ثم رفع عينيه فجأة وأمسك بكتفى محدثه وراح يهزه فى عنف ، وهو يغمغم فى خشونة وقد تلألأت فى عينيه الدموع :

– أريد أن أعيش ، أريد أن أعيش عشر سنوات أخرى .. عشر سنوات أربى فيها أولادى .. أتفهم ؟

- ستعيش يا عمى .. ستعيش حتى تدفننا جميعاً .

- أدفنكم .. إن هذا خبر سار حقاً .

ولقد سره هذا الخبر حقاً .. يدفنهم جميعاً بيديه .. فقد راح يحملق فى الفراغ وقد أشرقت عيناه بأمل لا يحد .. بينما تصايحت عدة أصوات فى وقت واحد :

- أعوذ بالله .

وانحنت الأفوه على أكواب الشاى .. بعضها يبتسم وبعضها يضحك .. وبعضها يحلم .. وفى ناحية منعزلة جلس اثنان يتساران حديثاً خفيفاً ما لبث أن ارتفع حتى أصبح صخباً وضجيجاً ثم تحول إلى معركة .. وقد أمسك أحدهما بتلابيب الآخر وأخذ يصيح :

العشرة قروش يا بنى آدم .. العشرة قروش ..

وهب عدة رجال فى وقت واحد .. وسمعت عدة صيحات وكلمات مختلطة .

- صبرك يا خليل .. اتهدوا بالله يا جماعة .. اتلم أنت وهو .. اخرس .. اللهم اخزيك يا شيطان .. بقى ده ذنبى اللى سلفتك .. بقى أنا أبويا كلب برده .. الله يسامحك .. صحيح ما ينوب المخلص.. ياجدع عيب ده احنا أخوات وما يصحش كده .. يا خليل

ارجع . بقه مفيش حد مالى عنيك يا أخى .. أوع إيدك ..

ولكن يده الباغية كانت قد انقضت تلطم وجه غريمه وتغور فيها بأظافرها ، فتترك ندبة طويلة يسيل منها الدم .

وكثر الصياح والتدافع بالأيدى .. وتوالت اللطمات ، ثم بدأ الهدوء يعود وتفرقت كتلة اللحم إلى عدة أفراد يصلح كل منهم ثيابه ويشتم .. ويلعن ويبصق على الأرض .. وأخذ العجوز ذو السن الواحدة يقول فى عتب :

- بقى دى آخر العشرة يا جماعة .. بقه كده يا خليل تضرب أخوك .

ولم يكن لدى خليل شيء يقوله فجلس وحده على كومة من الأتربة يحملق فى النار وقد أكلت الخشب وأحالته إلى رماد تتوهج فيه خيوط قليلة حمراء .. وظل العجوز يتكلم .. وظل كل واحد يتكلم .. وظل خليل صامتاً لا يبدو عليه أنه يسمع شيئاً سوى طقطقة النار .. ومر وقت ليس بالقصير .. كانت سحنته فى أثنائه تتبدل وسماته تتراخى .. ثم شوهد أخيراً وهو يحل منديله المتسخ من حول رقبته ويذهب إلى غريمه فى صمت ، ويشرع فى تضميد جرحه .

وكان الاثنان يبكيان ..

■ ■ ■

وأشعل الرجل المستند إلى جزع الشجـرة لفافة التبغ العاشرة ، وراح يحـملق فى النار هو الآخـر .. ويصغى إليـهـا وهى تطقطق وتخبـو، ومن حولها تتـجمع هذه الوجوه النحـاسية كأنهـا وجوه لمخلوقات من عالم آخر يراها لأول مرة .

وكان يخـتلس النظر إلى الاثنين اللذين كانا منذ برهة يقتـتلان وقد أحـاط كل منهمـا عنق الآخر .. وانحـنى ظهرهمـا فى تعبـير صامت لضعف الإنسان وذلتـه ، وقد لمع وهج النار النحاسى على صفحتى وجهيهما وتلألأت عليهما حبات الدموع .

وخـيل إليـه أنه يرى للمـرة الأولى صـورة صـادقـة لأحـزان الإنسان ..

وحينما استدار ليعود أدراجه لم يستطع أن يمحو هذه الصورة التى فـتحت أبـواب قلبه المغلق فـتـدفق منه طوفـان من المشاعـر الحبيسة .

لم يســتطع أن يمنع قلبه مـن أن يحزن ، ولم يسـتطع أن يمنع روحـه من أن ترتجف فى سـجنهـا وهى تتطلع إلى هذه الوجـوه الجافية الخشنة ، وهى تـقطع عليه الطريق وتخرج عليه من طوايا الظلام وفـى يد كل منهـا فــانوس يســبح فى هالة مـن الوهج النحاسى .

وحينما بلـغ بيته لم يلحظ أن البواب قـد وقف يتثاءب ويؤدى التـعظـيم ، ولم يسـمع نبـاح الكلب ولا صلصلـة الـحصى تحت قدميـه.. ولم ير الخادم الأصلع .. وهو يجيب دقة الجـرس .. فقد كانت أذناه ترعـدان بهذا الصوت المـتحشـرج الذى ينساب من فم رجل عجوز ذى سن واحدة :

- إن لى ابناً ولا أريـد أن يحـفـر ابنى الأرض وينزع مـثلى المجارى ويدك الأسـفلت ويحمل القطران وأن تذهب سبـعون سنة من العذاب والشـقاء بلا كفـارة .. إن الحياة لا طـعم لها بلا أمل ، أريد أن أعلم أن فأسى هـيأت الأرض لحيـاة أصلح وأن عرقى لم يذهب عبـثاً . أريد أن يكون ابنى متعلمـاً يقرأ أو يكتب ولا يجلس مـثلى على الأرض أريد أن أعـيش عـشـر سنوات أخرى ، عـشـر سنوات أربى فيها أولادى ..

أريد أن أعيش .. لقد كان الرجل يطلب الحـياة كان يطلب عشر سنوات من الفقر والجوع والتعاسـة والخرق القديمة .. لأن الحياة ليست هى الحرير والخمر والنساء .. وإنما سر الحياة هو أن تبذل فى سبيل غاية .

وهذا هو الشىء المجهول الذى ينقص حياته .

أنشودة الـدم

الجندى الإنجليـزى الذى يقف حـارسـاً على مـقـابر العلمـين شخصية غريبة ..

والذين يمرون بـعرباتهم على مقـابر العلمين فى طـريقهم إلى مـرسى مطروح يعـرفون ذلك الوجـه الشـاحب الذى يطل عليـهم ويتفحصـهم واحداً واحداً بابتسامته البلهاء الغريبة .

وفى العادة يتـقدم الحارس المصرى ليـنقذهم من تلك النظرات الفضوليـة متعذراً بإشارة معناهـا .. هذا رجل مسكين فى عقله .. اعذروه ..

كنت أفكر فى الرجل حـينمـا قـررت المبيت فـى إحدى الغـرف الأربع الموجودة بـالاستراحـة فى تلك الليلة البعـيدة من أكـتوبر . وكـان همى الأول أن أقضى المسـاء مع ذلك الإنجليـزى ليفـتنانت

جون ليتل كما يسمى نفسه ..

وفى الكشك الصغير من الخشب المطل على البحر ، وعلى الدكة المغطاة ببطانية من الصوف ، جلسنا نتحدث وأخرج جون زجاجة السكوتش التى لا تفارق جيبه وصب لى كأساً .. وقال وهو يتطلع إلى الأمواج العالية ..

- أنت لا شك تعجب لأنى اخترت الإقامة فى هذا المكان الموحش فى الوقت الذى كان باستطاعتى فيه أن ألحق بزملائى فى إنجلترا .

- هذا فعلا اختيار غريب ..

أما بالنسبة لى فإنه ليس غريباً على الإطلاق ، فليس لى زملاء هناك فى إنجلترا وإنما كل زملائى وأحبائى هنا فى هذه المقابر : هنا حياتى ..

وأشار إلى آلاف الصلبان الخشبية التى تغطى الرمال كنباتات قصيرة جرباء ..

وعاد يشير بأصبع مرتجفة ..

- وهنا يرقد شارل ..

وصمت لحظة ثم أردف ..

أنت لا تعرف شارل .. ولو أنك عرفته كما عرفته أنا لما استطعت أن تفارقه حياً ولا ميتاً ..

إن الحرب شيء فظيع ..

إنك لا تستطيع أن تتصور كيف مرت تلك الليلة ، ليلة قررنا الهجوم الكبير فى العلمين ..

إن قصف المدافع ونيران القنابل الحارقة .. وأزيز الطائرات .. ودمدمة الرشاشات وهزيم الدبابات . ما زالت تصك أذنى كأنها تحدث حولى اللحظة ولم تمر عليها فى كل تلك السنين ..

ليلتها كان كل هؤلاء (وأشار إلى ساكنى المقابر) يملأون تلك الساحة الخلاء بالحركة والحياة . وكانت هذه السماء مضيئة بآلاف القناديل . ولولا صرخات الموت هنا وهناك لخيل للواقف هنا أنه فى محفل سماوى رائع ، إن منظر الدم يسكر . أقول منظر الدم يسكر . ولا يعرف هذه الحقيقة إلا مَنْ جربها ..

إنك تخاف من الحرب وترتجف من أهوالها طالما كنت بعيداً عنها تسمع أخبارها على ألسنة الرواة وترى صورها فى الصحف، أما إذا عشت فى معمعاتها . ورأيت الدم يتفجر من حولك . فإن رأسك تدور . وحلقك يجف ، وتتحول إلى حيوان مفترس لا يعرف .. حيوان عطشان للدم ..

إن أسنانك تصطك الآن مجرد تـصور السونكى فى يدك وأنت تدفعـه فى قلب رجل حى فتستـل منه الحياة ، أنت تقشـعر وأنت تسمع هذا الكلام الآن ، ولكن ساعتها سوف تجد نفسك تطعن فى ضراوة ذئب ، وكـأنك أصبـحت شخصـاً آخر بل صنفـاً آخر من الكائنات لا تمت للبشرية بسبب .

إن مهنة القتل تنبت مخالب فى تلك الأيدى الناعمة .

وفى أتون القتال لا تعود هناك نجاة من الموت إلا بالموت .

أقتل .. أقتل .. أقتل فى حماس وهمة إذا أردت أن تنتهى من كل شىء . يالها من نشوة بشعة ..

كنا ساعتها نحارب أنا وشارل فى مركز أمامى فى الجبهة .

وكان علينا أن نتقدم ببطء تحت ستار من قنابل المدفعية ..

وكنا نزحـف على بطوننـا كـزوج من الأفـاعى . وبيـن لحظة وأخرى نرفع رءوسنا لنلقى بقنبلة يدوية ، ثم نعود ندفن رءوسنا فى الرمل ونزحف من جـديد .. والأرض من تحـتنا تهتـز كأنهـا حبلى بآلاف الزلازل .

وفجـأة ظهرت أمـامنا دبابة مـعادية شقـت الضباب وسـحب الدخان ، وأطلقت برأسـها كخرتيت قـبيح .. وأخذت تتقـدم نحونا بخطى بطيئة رهيبة ، ضاربة حولها سياجاً كاسحاً من النيران .

وكل لحظة تمضى كانت تقربنا من موت أكيد ..

موت أكيد يمد نحونا أذرعاً أخطبوطية من اللهيب والرصاص . تحصد فى طريقها كل شىء والأمل واحد فى المليون ..

معجزة ..

أن نلقى بقنبلة يدوية فتسقط فى تلك الفجوة الصغيرة فى برج الدبابة وتنفجر فى سائقها ..

فجوة من عدة سنتيمترات يجلس فيها الموت ونحن نلعب معه لعبة كرة السلة ..

مَنْ يضع الكرة فى السلة !!

والموت يقترب ..

وأسمع وقع خطاه الحديدية وكأنه يمشى على أضلاعى .. وأرتجف .. وأشعر أنى مشلول تماماً .. وأضحك من اليأس والجنون .. وأتلفت باحثاً عن نجدة فأرى ذراع صديقى شارل ترتفع بقنبلة يدوية تلقى بها فى الهواء .. ثم لحظة صمت .. وصرير الدبابة يقترب ويقترب .. ثم انفجار مروع .. وتتوقف الدبابة .

لقد حدثت المعجزة .. ونزلت القنبلة فى برج الدبابة ..

ويقفز شارل ليحتضننى وهو يصيح .. هورا .. هورا .. لقد

انتصرنا .. ثم أشعر بريح ساخنة تلفح خدى وأزيز شىء يمرق كالبرق إلى جوار أذني .. ويسكت شارل وأتلفت إليه فأجده .. مازل يحتضنى بذراعه .. ولكن بلا رأس .. فقد أطاحت شظية برأسه من بين كتفيه ..

ومكان الرأس فجوة رهيبة ينفجر منها الدم كالنافورة ..

ولكن ذراعه ما زالت تحتضنانى فى نشوة خرساء .

يا لها من لحظة فظيعة ..

كان يمسك بى بكلتا يديه .. جثة بلا رأس .. لا يريد أن يفارقنى حيًا ولا ميتاً .. وكنت ما زلت أسمع صيحته .. لقد انتصرنا ..

وصمت جون قليلا وراح يلتقط أنفاسه ثم عاد يغمغم ..

كانت ليلة رهيبة ..

أحياناً يخيل إلى أنها كانت كابوساً ..

وأحياناً أتذكرها فلا أصدق أنها حدثت هكذا كما رأيتها فى الواقع وأننا عشناها بحواسنا ورأيناها رأى العين ..

نعم .. لقد انتصرنا ..

وعاد منا إلى الوطن مَنْ عاد ..

ورقد تحت التراب مَنْ رقد ..

ولكنى لم أستطيع العودة مع العائدين ..

كنت أشعر دائماً بذراعى شارل الحنونتين تضمانى ..

وكنت أشـعـر أنى أحيـا مع الأحـياء لأنـه أراد لى أن أحيـا .. وافتدانى بدمه ..

ولم أستطع أن أفارقه ..

وطلبت من القيـادة أن أبقى حارساً على مقـبرته فى هذا المكان الموحش فـهنا كانت حـياتى وهنا كان مـولدى الثانى .. وسـيكون مرقدى الأخير .

وسكت جون .. ورأيت عينيه تدمعان ..

ومرة أخـرى أخرج الزجاجـة من جيبه وسكـب كأساً جرعـها دفعة واحدة كأنما يريد أن يطفىء ناراً بدأت تشتعل فى داخله ..

وطال سكوته ..

وطال تفكيرى ..

وارتفعت وشوشة الموج ..

ثم سمعته يقول وهو ينظر ساهماً إلى البحر ..

إنى أنتظره كل ليلة فى هذا الكشك ..

- تنتظر مَنْ ؟

- لا .. ليس شارل .. إنى أنتظر الرجل الآخر ذى القيثارة ، ولمعت عيناه وخيل إلى أنه يهذى . ورأيته يحملق فى وجهى قائلا:

- لماذا تنظر إلى كما لو كنت مجنونا . إنى لست مجنونا . لقد رأيته كما أراك الآن . الرجل ذو القيثارة ..

- مَنْ هو الرجل ذو القيثارة ؟

وألقى برأسه إلى الوراء وملأ كأساً أخرى وشرد قليلا ثم بدأ يحكى ..

- بعد أن انتهت الحرب بسنوات ، وبعد أن بنينا ذلك السور العالى حول المقابر .. ذات ليلة فى شتاء ١٩٦٠ وفى جو عاصف شديد البرودة ، توقفت عربة فورد قديمة على هذا الباب ونزل منها رجل مهيب خيل إلى حينما طالعت وجهه أنى أعرفه . وأنى رأيت صورته من قبل ، ولكن مَنْ هو ، رحت أعصر ذهنى بلا جدوى . مَنْ هو .. كان يذكرنى بهتلر ولكنه ليس هتلر .. فرانكو .. موسولينى .. لا ليس موسولينى ، مَنْ يكون ذلك الرجل المهيب الذى تبدو عليه ملامح القائد ؟!

وحيَّانى فى أدب واقتضاب ، وقدم إلى نفسه قائلا إنه شاعر وأنه يكتب منذ سنوات ملحمة شعرية عن الحرب .

شاعر .. يالها من ليلة رائعة سوف أقضيها مع الفن .

وشعرت بسعادة لا حد لها ..

وكدت أحتضنه من الفرحة ..

وسارعت إلى حقيبته أحملها عنه..

ولكن .. لا .. إنها لم تكن حقيبة ككل الحقائب ، وإنما كانت أشبه بصندوق قيثارة .

وسألت في دهشة :

– هل يعزف سيدى القيثارة ؟

– القيثارة ؟ .. آه .. نعم .. إنها هواية قديمة ، لم أستطع أن أتخلص منها .

يالها من ليلة ..

سوف أستمتع بالشعر .. والموسيقى .. والرفقة الممتعة ..

سعادة لا يجود بمثلها الزمان كل مائة عام فى مثل هذا المكان الموحش ..

وأخذته إلى أجمل غرفة فى الاستراحة ، الغرفة التى تطل على البحر والمقابر ومتاهات الرمال الساحرة ..

وأحضـرت أجود ما عـندى من خمور فـاخرة معـتقـة وطعام شهى.. وجلسنا نتـسامر .. ونشـرب .. وأخذ يلقى على مسـمعى روائع من شعره الأخاذ فى نبرات تخطف القلب ..

هل سكرنا تلك الليلة ..

هل فقدنا الوعى ..

لا ، لقد كنت فى تمام وعـيى حينما أشـرت بيدى إلى صندوق القيثارة إلى جواره ، فأجاب فى ابتسامة :

– هل تريد أن تسمع عزفى على القيثارة ؟

وأومأت إيماءة رجاء ..

ولمعت عيناه ببريق غريب ..

ورأيته يمـيل على الصندوق ويفتحـه ويخرج منه .. يا إلهى .. لم تكن هناك قيثارة . وإنما كان هناك مدفع رشاش .

ونظرت إليه فى دهشة .. وعدت أنظر إلى الآلة القبيحة الدميمة بين يديه ..

كانت عيناه يتطاير منهما الشرار .

ورأيته ينتـفض على قدميه حـاملا مدفعـه الرشاش فى وضع

استعداد ، وتراجعت إلى الوراء في ذعر ، وقلت بصوت مرتعش :

– أنت لا شك تمزح يا صديقى .

فقال بصوت معدنى بارد لا أثر للإحساس فيه :

– لا ، أنا لا أمزح .. إنها صناعتى الحقيقية ، إنى قاتل .. صناعتى القتل ، أما الشعر فهواية أمارسها فى أوقات الفراغ .

– ولكن ..

– وقد حان وقت العمل .. وعلينا الآن أن نقتل ، كفى ما قضيناه من وقت طوال هذه الليلة المتراخية فى الكسل .

– ولكن يا سيدى ..

– أريد أن أقتل .. أريد أن أقتل قلت لك ..

– وجحظت عيناه وأشرع مدفعه الرشاش وامتدت يده لتضغط على الزناد ، وافترت شفتاه عن أسنان تلجية قاسية ، وظهرت على وجهه تلك السحنة التى أعرفها جيداً والتى كانت تبدو على وجوهنا حينما كنا نقتل ..

ومرت بجسدى قشعريرة باردة وقلت متوسلا :

– ولكن يا سيدى ماذا تريد أن تقتل هنا ، إن كل مَنْ تراهم حولك هم قتلى بالفعل ، أكثر من ثمانين ألف قتيل تحت هذا

التراب .

- إذن لا مفر من إحيائهم من جديد لأقتلهم ثانية ، وكدت أضحك وقد أيقنت أنى أمام مجنون ملتاث العقل ، حينما قال فى هدوء :

- هذه سنة الحياة .

- ومَنْ الذى وضع هذه السنة يا سيدى ؟

- القادة المصلحون من أمثالى ..

- وهل القادة والمصلحون صناعتهم القتل ؟

- نعم أيها الأحمق لا بد أن يكونوا قتلة لينظفوا الأرض من الحثالة القديمة ويعدونها لغرسهم الجديد .

- إنها لقصة بشعة ..

- بل هى أغنية رائعة ، قصيدة ، معزوفة موسيقية بديعة ، انظر ..

وبدأ يضغط على الزناد .. ويطلق الرصاص فى الهواء وأنا أقفز من الرعب ، وهو يضحك ويختال راقصاً بمدفعه وكأنه عاشق يخاصر معشوقته ويرقص بها ، ويغمغم فى نشوة .

- إنك لن تصبح قائداً إلا إذا استطعت أن تقتل وأنت تغنى ، لن

تستطيع أن تصنع الحياة إلا إذا صنعت لآخرين الموت ، هذه سنة الوجود .

– ولكن هذا شىء فظيع .

– أنت تقول هذا لأنك رجل تافه ، أنت واحد من ألوف التافهين بلا إرادة ممن لا عمل لهم سوى أن تصدر إليهم الأوامر ، أوامرنا.. لن تكون شيئاً فى يوم من الأيام ، أنت وغيرك مسامير صغيرة فى العربة التى تقودنا .

– هذا أفضل من أن أقود عربة هى فى الواقع عربة الموت .

– أنت مسمار فى هذه العربة على أى حال .. أردت أم لم ترد .

وراح يطلق الرصاصات وهو يضحك ، وأنا أقفز فزعاً ثم نظر إلى فى إشفاق قائلا :

– لا أمل فى شفائك من التفاهة .. لا أمل ..

واحتضن مدفعه الرشاش فى حنان وأودعه صندوقه برفق وعناية ، ونظر إلى يأساً :

– لا أمل فى شفائك ، أنت لا شىء ، وستظل لا شىء .

وحمل صندوقه ومد يده مودعاً وهو يقول :

- وداعاً يا صديقي ، لن أغيب طويلا ، سوف أعود إليك فى القريب ، وحينئذ سوف يكون كل هؤلاء (وأشار إلى ساكنى القبور) قد ولدوا من جديد ، وتكون هناك فرصة رائعة لمذبحة جديدة . لا تخف (وربت على كتفى) لن أقتلك ، إن قتل فرد واحد ليس من أخلاقنا .. إنها عادة المجرمين .. أما القادة والمصلحون أمثالنا فإنهم لا يقتلون فرداً وإنما يقتلون بالآلوف .. وبالشعوب جملة ، وهذا ما يقتضيه كنس الأرض بين وقت وآخر لبذر المحاصيل الجديدة .

إن عملية الإصلاح عملية شاقة صدقنى ..

ليلة سعيدة ، وتمنيات طيبة لأمواتك ولقاء قريب ..

واستدار ليخرج .. ولكنه لم يخرج من الباب وإنما خرج من الحائط ..

وانتهى جون من قصته وغرق فى الصمت ، ولم يعلق بشىء ، وغرقت أنا فى السكون .

ومن لحظة لأخرى كنت أختلس النظر إلى عينيه ..

كانتا عينين خضراوين وديعتين هادئتين لا يبدو عليهما أثر الجنون ، وكنت أشعر بالحيرة فى أمره وأمر قصته ..

ويبدو أنى أغرقت طويلا فى تفكيرى ، لأنى رأيته يقوم

ويختفي في الكشك ثم يعود ليسلمني مفتاح غرفتي ، ويسألني إذا كنت في حاجة لشيء ، وفي الطريق إلى غرفتي ، كان مازال يغمغم وهو يمشي إلى جواري :

– إنه سوف يعود ، أنا أقول لك إنه سوف يعود ..

– أنت تحلم ياصديقي .. مَنْ هو الذى سوف يعود ؟

– الرجل الذى سوف يقتل الألوف وهو يغني .. الرجل ذو القيثارة .. لقد رأيته يغني كما أراك الآن ..

رعشة

كانت القاهرة تحترق .. وكل واحد يهرول في طريقه في خوف، وعربات الشرطة تخرج من الظلام تلمع فيها عشرات البنادق وأنا أسير في طريقي أرتجف ، ويخيل لي في كل لحظة أن يداً غليظة سوف تستقر على كتفي وصوت خشن يقول لي : أنت مقبوض عليك ، فكل واحد كان يقبض عليه في ذلك اليوم بسبب وبدون سبب ، لأنه شيوعي أو إخواني ، أو أمريكاني ، أو إنجليزي أو مصري أو متشرد ، أو صعلوك ، أو مشبوه .. أو مراقب ، أو سيىء الحظ ألقته الصدفة بقرب واحدة من العمارات الكثيرة التي تحترق .

وكان طريقي إلى منزلي يستلزم مني اختراق عدة شوارع كبيرة ، فرسمت في ذهني خطة أتجنب فيها تلك الشوارع وإن

احتاج الأمر إلى مسيرة ساعات ، وهكذا وجدت نفسى أسير فى المقابر .

وكان الخوف ما يزال يلازمنى ، وكل عضلة فى بدنى تتوتر لأقل صوت ، والواقع أنه لم يكن هناك صوت سوى صوت تنفسى وصوت وقع أقدامى على الأرض المتربة وصفير الرياح فى أذنى ولكن الحريق كان طوال الوقت أمامى ، والعمارات المشتعلة كالشموع وعربات المطافىء ، وعربات البوليس ، والكلبشات ، وحكم المؤبد والخمستاشر سنة كما يحدث دائماً فى أمثال هذه المناسبات حينما يأخذ القانون راحته وتتحول كل المحاكم إلى محاكم عسكرية ، وتصدر الأحكام فى لحظات ، ويصبح أى ظلم عدلا لا غبار عليه فى سبيل صيانة الأمن .

كنت أرتجف ، وأتخيل أن اواحداً لا بد قد رآنى وأنا أسير إلى جانب فندق شبرد ، والواقع أنى لم أفعل شيئاً ، ولم أرتكب أى مخالفة يؤاخذنى عليها قانون أو ضمير ، كنت أسير ، وهذا كل ما فى الأمر ، أسير أمام شبرد ، مع عشرات من السائرين ، حينما رأيت النيران تخرج من النوافذ ، والنزلاء يلقون بأنفسهم فى الطريق ، وخدم الفندق يلقون السجاجيد فى الشارع ، وعشرات الأيدى تتلقف تحفاً وأشياء ثمينة .. وأشياء أخرى ملفوفة فى ورق، وتماثيل .

وقع عند قدمى تمثال . وكان يبدو أنه تمثال فضى ..

توقفت فى ذهول ، تلفت حولى ، كان كل واحد يحاول أن يلطش ما تصل إليه يده ، لم أفكر أن أمد يدى إلى شىء ليس لأنى رجل فاضل ، وإنما لأن الرعب كان يشل كل حركاته ويجمد أفكارى، سرت فى طريقى مسرعاً وأنا أرتجف .

كنت أتذكر تلك اللحظات الرهيبة وأطمئن نفسى بأننى لم أفعل شيئاً .. لم أمد يدى إلى شىء ..

ولكن مَنْ يدرى أن أحداً لن يختلق على الأقاويل ويطلع على الصباح لأجد نفسى فى الحديد ، والمحقق يقول لى أثبت أنك كنت فى مكان آخر ساعة الحريق وكيف أثبت أنى فى مكان آخر وقد كنت فى ذات المكان وذات الساعة .

كانت آلاف الهواجس تروح وتجىء فى ذهنى ، وكنت أرتجف طول الوقت حينما خيل إلى أن هناك وقع أقدام خشنة تسترق الخطى خلفى .

وتوقفت فى ذهول الرعب لأتأكد أن ما سمعته لم يكن واقع أقدامى أنا ..

كان السكون فظيعاً ، والريح تصفر .

وجاءنى وقع الخطى يطرق الأرض المتربة ثقيلاً مبهماً .

وتجمدت فى مكانى وتثلجت أطرافى وسرت فيها قشعريرة باردة ، وأدرت عنقى ببطء لألمح خلفى ظل مارد أسود لرجل ضخم الجثة يتقدم فى اتجاهى ، وسقط شعاع المصباح الوحيد على كتفه ولمعت نمرة نحاسية وبندقية مشرعة .

كان شرطياً .

إن ما حسبت حسابه قد حدث ، وأطلقت ساقى للريح .

ومن خلفى انطلقت الخطوات الثقيلة تدق الأرض تباعاً فى مطاردة حادة وكنت أسمعها تقترب وتقترب ، وكأنها تدق على باب أذنى .

وكنت أسمع لهاث الشرطى وهو ينادينى ، وأنا أهرول فى جنون فى كل طريق ينفتح أمامى ، وقد أفقدنى الرعب صوابى .

بعد دقائق يلتف الحديد حول يدى ، وبعد دقائق أخرى يواجهنى المحقق بالسؤال التقليدى ، أين كنت ساعة الحريق ، ثم يلقى بى فى السجن مع المئات ، وأقضى الليل على رطوبة الأسفلت .

كانت المخاوف تسرى كالكهرباء فى ساقى فتطلقها كالريح ، ولكن الأقدام التى تدق الأرض من خلفى كانت أسرع منى ، وما لبثت أن شعرت بذراع ثقيلة على كتفى ، وتكومت إلى جوار

حائط كفأر مذعور وأنا أنتفض ، ونظرت إلى الشرطى الذى لحق بى ولدهشتى رأيته هو الآخر ينتفض .

كان وجهه ممتقعاً وعيناه جاحظتين وكان يشير بذراعه إلى ناحية المقابر ، ويتهته بصوت مرنجف :

– هل رأيته ؟

– رأيت ماذا ؟

– الـ .. م.. م .. ميت الذى خرج م .. من تربته .

– أى ميت ..

– فى التربة التى أمامها صبارتان ، لقد رأيته يخرج وعليه كفنه ، رأيته يخرج ذراعيه وساقيه .

وكان الرعب قد بدأ يزايلنى وبدأت ابتسامة شاحبة تزحف على شفتى ، كان الرجل يتكلم والبندقية فى يده ، ويده ترتعد والبندقية ترتعد .

ورأيت نفسى أربت على كتفه وكان ما يزال يتكلم .

– رأيته واقفاً وعليه الكفن . صدقنى لقد رأيته بعينى هاتين ، فأنا أعرفه وأعرف حكايته ، فقد مات قتيلا .

– وهل كل مَنْ يموت قتيلا يقوم من تربته بعد الموت ؟

- نعم . إن روح القتيل لا تعرف راحة ولا استقرار إلا إذا انتقمت من قاتلها .

- وهل فى إمكان الأرواح أن تنتقم ، هل لها سلطة ؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهل هناك سلطة فى الأرض تعلو على سلطة الأرواح ..

وطيبت خاطره وطمأنته ، بأن ما رآه كان وهماً ، وأنه لا أرواح هناك ، ولا أحد فى هذه القرافة صاحب سلطة سواه هو وسوى بندقيته المليئة بالطلقات .

ولكنه ظل يؤكد لى وهو يتلفت أن الأرواح موجودة ، وأن روح هذا القتيل هى التى تحكم هذا المكان ، وهى صاحبة السلطة المطلقة فيه ، وأن البندقية لا حول لها ولا طول أمام قوة الروح اللانهائية، وظل يستعيذ بالله من الشيطان ومن الكفر والكافرين .

وكان ما يزال يرتجف ويتلفت حوله فى ارتياب ويلوذ بى وتذكرت خوفى منه ..

وضحكت ..

وكان ما يزال يتحدث عن الأرواح ويناقشنى فى يقين لا يهتز قائلا : إن الأرواح يمكن أن تلبس الناس ويمكن أن تسخطهم ، ويمكن أن تصيبهم باللوثة ، وإن أكثر الناس فى هذه الدنيا

ملبوسون ، وإن فوق كل حكم فى هذه الدنيا حكماً علوياً تصدره محكمة الأرواح السماوية ، وأنه فى هذه الساعة من كل مساء تعقد هذه المحكمة .

- أى محكمة ..

وكان عقلى قد سرح فى المحكمة الأخرى وفى الحديد وفى رطوبة الأسفلت ، وسرت فى بدنى رعدة .

وكان هو يرتعد هو الآخر ويتكلم عن المحكمة التى فى السماء.

وكنا كلانا نتحدث فى وقت واحد ، كل واحد يتحدث بلغة خاصة لا يفهمها الآخر ..

حيـــاة الأعـــزب

الجمعــة :

أنا حاكم لا شريك له على بيت أنيق .

ليس لى ثان فى دولتى الصغيرة الجـميلة ، أستطيع أن أصحو مـتى شـئت ، وأنام مـتى شـئت ، وأخلع ثـيـابى وأغنى وأطرقع مفاصلــى .. وأشـرب الماء أو العرقسوس أو الويسكى كما يحلو لى .

ليس على أكتافى شىء سوى رأسى ، لا مسئوليات ، لا هموم، لا مطالب ، لا واجـبات ، فـأنا أعـزب ، كلمة جـمـيلة حلوة ، هذه الكلمة أعزب ..

لقـد تذكرتهـا وأنا أحلق ذقنى ، وأنظر إلى وجـهى فى المرآة ، فصفرت بفمى نشيد المارسليـز احتفالا بالحرية المطلقة التى أعيش

فيـها ، والإمبـراطورية الواسعـة التى أحكمها ، والتـى تتألف من ثلاث غرف وصالة وحمام أنيق بالقيشانى .

سوف أنام الليلة ملء أجفانى ، تحلم بى كل عانس ، ويحسدنى كل زوج وتجعل مـنى بنات السادسة عـشرة مـحوراً لمغـامراتهن ويحـمل همى الخـادم والبواب والجـيـران ، ولا أحمل أنا سـوى ابتسامة واسعة ساخرة معها أخر نكتة من نكت الموسم .

يقـولون إن حيـاة الأعزاب تعـاسة ، ووحـدة وفراغ وفـشل .. وهذه خـرافة خـلقهـا الأزواج لأنهم فـشلوا فى أن يكونوا عـزابا ناجحين .

ومثلها حكاية البـيت الدافىء والأولاد الذين يمدون بقاء الزواج على الأرض ، والزوجـة التى تضـىء ظلام الوحـدة مـثل القنديل ، وحديث آخر الليل الذى يتقاسم فيه الزوجان المسرات والهموم .

كل هذه إعلانات مثل الإعـلانات التى تروج بيع الصابون وملح كروشن والأسبرو ، أما الواقع فهـو شـىء آخر غير هذه الإعلانات فـالبيـت قد لا يدخله الدفء بـالمرة والابن قد لا يمـد أجل أبيـه .. وربما أخـذ أجله .. والزوجـة قد تكون نكدا .. وحـديث آخـر الليل غالبا ما يتحول إلى مراجـعة للحسابات تنتهى بخناقة وبأن يعطى كل واحد ظهره لصحابه ووجهه للحائط .

خذوا الحكمة من أفواه المتزوجين .

إن من عـادتى أن أترك ملعب الزوجيـة ينزل فيـه أصدقـائى ، وأكتفى بالتهليل على كل هدف يصيبه أى واحد من الاثنين ..

ومـا زلت أشكر الله على هذه النصـاحة ، وأشـعـر بالتلذذ وأنا أتأمل وجهى فى المرآة ، وأجـر عليه الموسى وأحلقـه بعناية قطعة قطعـة ، وأبحث عن ينابيع النصاحـة فى عينـى ، وأصفر بـصوت مرح يخرج من نافوخى ، وأقول أنا حر .. أنا أعزب ..

السـبت:

دفتـر يوميـاتى يقول إنى مـحجـوز على الغذاء والعـشاء لمدة أسبوع مقدماً .

إنى على حق فى إلغاء المطبخ من شقتى ، فما الداعى للمطبخ ما دمت أتغذى فى أقرب مطعم وأتعـشى عند أقرب صديق .. وأغسل ثيابى عند أقرب مكوجى ، وأعود للبيت لأنام .

لقد قالت لى صديقتى اليوم :

– أنت رجل مضيع ، أنت موزع على طول الشارع الذى تسكن فيه بين البقالين والحلاقين والمكوجية والمطاعم والمخابز .

إن بيتك ليس بيتاً ، إنه مجرد سرير سفرى جاراج .. خيمة كشافة .. تتزود بالتموين من كل رصيف ..

أنت متشرد ..

وفهمت من كلامها أنها تلمح لى بالزواج بأسلوب ماكر مهذب فقلت لها بهدوء :

– أنا رجل عصرى لا أضيع ثروتى فى البيت تحت البلاطة ، وإنما أساهم بها فى كل البنوك أيكون هذا تضييعاً لى .

فقالت فى غيظ :

– وتساهم بحبك فى كل القلوب ، أليس كذلك ؟ إنك تحاول أن تضمن الواحدة بعقد علاقة مع أخرى ، ولكنك تخسر الاثنين لأنك تخسر الثقة ، إن كل شىء فى حياتك لا يبعث على الثقة ، وأنت نفسك لا تثق بنفسك .

ودمعت عيناها وأردفت فى يأس :

– إنك تجعل الإخلاص مستحيلا ، ثم تبكى لأنك لا تجد الإخلاص ألست رجلا مغفلا ..

فقلت فى ضيق :

إن الإخلاص يولد من نفسه ولا يولد بالحقن والمواثيق ، أنا

رجل واقعى لا أطلب من الطبيعة البشرية أكثر مما تستطيع أن تعطيه .

- إن الغلب عندك طبيعة ، أنت غلبان .

وشعرت بالغيظ ربما لأنى غلبان فعلا ، ولكنى لم أجب بكلمة وقالت هى بعد فترة :

- أريد أن أعرف .. ماذا تريد من وراء هذا كله ، فى مقابل أى شىء تعيش هذه الحياة ؟

وأجبت فى يقين :

- أريد أن أحتفظ بحريتى ..

- بالضبط تريد أن تحتفظ بحريتك مجرد احتفاظ ، لأنك لا تفعل بها شيئا .

ورفعت صوت الراديو ليغطى على صوتها ، وفاض بى الضيق.

إن المرأة تفقد نصف جمالها حين تلمح بالزواج ، وتفقد النصف الآخر حينما تتحدث عن الفلسفة والمنطق - وخصوصا إذا كان كلامها فى محله .

الأحـــد :

تيقظت متـأخراً هذا الصباح ، وفتحت نصف عـين على شعاع الشمس الذى يداعب وسـادتى .. ثم عدت فأغلقتـها ، وبدأت أفكر من حيث انتهينا فى الليلة الماضية .

ماذا أريد من هذا كله .

حريتى ..

وماذا أفعل بحريتى ..

إنى أرفض اخـتيـار طريق لأنه يقـيـدنى ، وأفضـل البقـاء فى مفترق الطرق ، أعانى الحرية - ولا أمارسـها .

أهو إحـسـاس بالمسـئوليـة .. أم جبن .. أم تغـفيل ، إنى دائمـا أكتشف أنى مثالى من حيث أظن أنى واقعى .

إن الواقعية لا تقف فى مفترق الطرق أبداً .

الواقعية لا تعلق إمكانياتها ، وإنما تثب وتعمل .

وأنا أعلق كل شىء على مشجب .

ورفعت السمـاعة لأطلب صديقتى . فقـالت لى إنها خطبت إلى ابن عمها ، وتمنت لى أياماً طيبة .

ووضعت السماعة في سكون وتلفت حولي ، ولأول مرة أكتشفت أن في شقتي صراصير ، وأن العنكبوت يتدلى من جدرانها .

وتذكرت أن المكوجي قد أخذ كل القمصان للغسيل ولم يحضرها وأن كل الصحون قذرة ، وأحسست أني أكسل من أن أنظف صحناً ، فأرسلت البواب ليشترى لى صحنا جديداً ، ثم زعقت عليه بعد أن قفز بضع درجات على السلم .

- استنى عندك .. خذ اشترى لى قميص كمان علشان ماعنديش قمصان ..

وأغلقت الباب ، وعدت أتمشى فى الصالة ، ثم بدأت أدير البيك آب ، ووضعت أسطوانتى المحببة .

ووقفت فى النافذة ولكن البيك آب ظل يخشخش .. واكتشفت بعد مدة أن طبقات من التراب واقفة فى حلقه ..

ولا أدررى لماذا تذكرت حكاية الإمراطورية الواسعة التى أحكمها فى تلك اللحظة ، وأحسست أنى إمبراطور فعلا . ولكن إمبراطور على خرابة .

الاثنين :

ذهبت فى زيارة فرج ، وهو صديق قديم أعرفه من عشرين

عاماً ، ووجدته يدخن الجوزة وسط أولاده الخمسة ، وكان أكبر أولاده يمص عوداً من القصب ويضع المصاصة فى طربوشه ، وأصغرهم يقف وسط الغرفة بالفانلة واللباس ، يلوح بذراعيه الرفيعتين .

وكانت نونا الصغيرة تخرج لسانها ، ثم تقفز على الكرسى وتؤذن .

وكان فرج وسط هذه الهوسة يضحك ويكركر بقلب طليق ، وبين حين وآخر يفرغ الطربوش من مصاصة القصب فى صينية على الأرض قائلا فى حنان :

- بقه كده يا ولد ياتنتون ، تحط الزبالة فى طربوش أبوك ثم يضحك ..

- عفاريت الولاد دول .. عفاريت ..

وطول الزيارة كنت أفكر فى سؤال واحد .

كيف أضيق بهذا الصرخ ولا أكاد أحتمله دقيقة واحدة ، وكيف احتمله فرج عشر سنوات .. وهو يضحك .

أهناك سر بين الأب وأولاده .. يجعل كل شىء محتملا سر لا يفهمه الأعزب ..

ربما .. أنا لم أجرب على كل حال ،

الخميس :

بعد ليلة حمراء

رأس ثقلية .. جسمى مثل مدينة اكتسحها زلزال ، أعضائى تهدمت ، عظامى مثل أعمدة معبد انهارت وانهار فوقها السقف .

إنى أسأل نفسى ، أهذه هى اللذة ، أهذه هى السعادة التى يتزوج من أجلها الناس ؟

مجانين ..

إنى لا أجد فيها سبباً أتزوج من أجله .

إنها مجرد رغبة حمقاء . لا شأن لى بها ، الطبيعة تدفعنى إليها وتشوقنى وترغمنى فأسعى إليها كما يسعى النمل وأمارسها فى غباء ثم أفيق على لا شىء ، ولا تبقى من النار الموقدة إلا مجاملات فاترة .

خمس دقائق فقط ..

كيف أتزوج من أجل خمس دقائق ؟!

السـبت :

سألت نفسي ، ما هو الحب ، وبعد تفكير طويل اكتشفت أن الحب هو أن يبقى شيء بعد الخمس دقائق ، هو أن تبقى في النفس حاجات تدفع الاثنين على البقاء معاً .

الحب هو رغبة بين اثنين لا تستنفذها الطبيعة ، رغبة شخصية لكل منهما في الآخر ، ليس لكونه ذكراً ولا لكونها أنثى ، ولكن لكونه فلاناً .. ولكونها فلانة ، ولكونهما مشدودان بخيط من الفضول والدهشة والإعجاب ، كل منهما يحب أن يصغي إلى صوت الآخر ، حتى ولو لم يكن يتكلم ، يصغي إلى صوت وجوده.

فكرت في هذه العبارة ثم ضحكت ، يالي من شاعر وتذكرت أخي وهو يقول لي كل يوم :

إلى متى تظل أعزب ؟ متى تفكر في الزواج ؟

وهو لا يدري أني أعزب لأني أفكر في الزواج ، أقتله تفكيراً كل يوم وأفكر في الحب وأقتله تفكيراً .. ثم أقتل نفسي من كثرة التفكير في نفسي ، ثم لا يبقى بعد هذا إلا أشباح رغبات ، وشبح آخر أحمق ثرثار هو أنا ، لا يفتأ يسأل .. ويسأل .. يسأل لماذا .. وكيف .. ومتى .. وأين .. وإلى أين ..

الراهبة والميكرسكوب

فى ذلك المبنى العتيق الجليل ذى البشرة الكاحلة . كان كل شىء يجرى فى همس ، فنحن فى الكوليج دى فرانس ، مدرسة الراهبات ، ذات التاريخ المهيب .

وعلى طول الممر المبلط المحاط بالأشجار لم تكن ترى أو تسمع غير تلك الأشباح الرقيقة الملفعة بالبياض وهى تخطو فى سرعة هنا وهناك إلى الفصول .

وعلى السلم الحجرى الأحمر كانت الراهبة تيريزا تصعد فى نشاط حاملة صفاً من الكراريس ، والتلميذات الواقفات حول حوض زهر البنسية يحيونها بابتسامة مضيئة ويجرون خلفها.

إنهن سوف يستمعن اليوم إلى الأخت تيريزا تشرح لهن بأسلوبها الممتع فصلاً جديداً من كتاب علم الأحياء .

وتيريزا بعينيها الشاردتين الجميلتين تبدأ درسها فى صوت خافت تائه ..

وكل مَنْ ينظر إلى عينى تيريزا الواسعتين كبحيرتين كان يرى دائما ذلك التيه والشرود ، وكأنما فى أعماق البحيرتين ملاح تائه لم يجد بعد طريقه إلى شاطىء .

وكانت تيريزا تتحدث عن (مندل) الذى اكتشف قوانين الوراثة .

إنه الراهب جريجور مندل .

الأب المستنير الذى رأى فى الرهبانية عملاً واجتهادا ومساهمة إيجابية لخير الناس ، ولم ير فيها انقطاعاً فارغاً للصلاة فى صومعة بالصحراء .

كان مندل يقضى الساعات كل يوم يتأمل أزهار حديقته ويجرى التجارب على نباتات البسلة ، فيلاقح بين النباتات ذات الزهر الأحمر والنباتات ذات الزهر الأبيض ، ويتابع صفات النسل الناتج ويدون ملاحظاته بدقة فى نوتة .

ومن هذه الملاحظات استخرج قوانينه الشهيرة فى الوراثة .
كان الأب المستنير يرى فى حديقة الله كتاباً مقدساً فصيح العبارة

بليغ الكلمات ، وكان يرى أن الأصفياء الأنقياء يستطيعون أن يقرءوا إرادة الله بالنظر فى حديقته وتأمل صنعته .

وكانت التلميذات الصغيرات يستمعن مأخوذات إلى حديث تيريزا الساحر ، وقد خلبت أفئدتهن بنبرتها الرقيقة الخافتة المشحونة بالعاطفة التى تروى بها دقائق العلوم وكأنها تروى قصة حب مثيرة .

والواقع أن تيريزا كانت فى حياتها الخاصة أشبه بمندل .

كانت تسبح بعينيها الحالمتين دائما وراء السحاب بحثاً عن حقيقة ، وقد وهبت نفسها كلها روحاً وجسداً وعقلا للتفكير فى الملكوت وتأمل صنائع الله الباهرة ، وقد شغفها علم الأحياء واستغرقتها تلك الأسرار الكامنة فى الخلائق .

وقد لمست فيها الأخت أنجيلا رئيسة المدرسة هذا الشغف العلمى ، فشجعتها وأوفدتها فى بعثة للحصول على الماجستير فى علم الأحياء من كلية العلوم .

وكانت تيريزا تدرس للتلاميذ فى الصباح ، وفى المساء تحمل كراساتها كتلميذة مجدة لتتابع دراساتها العالية فى الكلية .

وكانت حياتها الجديدة ولقاؤها اليومى مع الحياة فى الكتاب .. ولمسها لهذه الحياة فى المعمل يجعلها ترتجف نشوة .

حينما تضع عينها على الميكروسكوب لترى مادة الحياة رأى العين ، وتكاشف سرها ومكنونها في تلك العلبة السحرية التى اسمها (الخلية الأولى) ، ذلك الحيوان البسيط الذى يتألف من خلية واحدة عريانة بلا جلد ولا عظام ولا أجهزة معقدة ، مجرد قطرة جيلاتينية تتحرك وتعقل ما ينفعها وما يضرها ، وكيف تتحرك هذه القطرة بلا أرجل وبلا أهداب وبلا زعانف وبلا عضلات ، كيف تبصر الضوء بلا عين وتسمع الصوت بلا أذن وتأكل الطعام بلا فم ، ثم تهضمه بلا معدة وتمتصه بلا أمعاء ، كيف تتنفس بلا رئة ، وتميز نفعها من ضرها بلا عقل ، وكيف تنفث السم فى عدوها بلا غدة ، وكيف تقوم بهذا العديد من الوظائف المعقدة وهى البساطة بعينها بل هى البساطة المطلقة ، مجرد قطرة من شيء شفاف .

كان ما تراه تحت العدسة السحرية شيئاً باهراً ..

وكانت قطرات العرق تتجمع على جنبيها الأبيض الناصع وقلبها يدق من الرهبة وكأنها أمام قدس الأقداس ..

فها هنا السر المحجب يطل عليها بوجهه الشفيف ويتكلم بلغة فصيحة ..

ولكن أين مَنْ يعلم سر هذه اللغة ..

الله وحـده عنده العلم ، وهو يـهبـه لأحـبـابه ، وأصـفـيـائه ، وزملاؤها ينادونها بالأخت تيريزا .

الأخت الطيبة النقية تيريزا .

لا أحد منهم استطاع أن يجاوز هذه الحدود الأخوية ، وما كان يلقى إليـها من كلام خـارج هذه الحدود ، لم تكن تفـهمـه ، لأنها كانت دائما مشغولة بشيء آخر ..

كانوا يقولون لها .. أنت جميلة .

وكانت تبتسم، فالجمال عندها له معنى مختلف عن مقاصدهم ، الجمال عندها هو الذى تتطلع إليـه فى غروب الشمس ، وفى طلعة القـمـر وفى جناح الفـراش وفى غـلالات السـحب ، أما الجـمـال الأنثـوى الذى يتكامـون عنه فلم تكن تعـرفه ، فلـم يسبق لهـا أن تفحصت ملامحها فى مرآة ، ذلك الغرور المألوف الذى تستمتع به كل امرأة فى سنها ، لم تعرفه ، تكويـن عقلها الدينى أبعدها دائماً عن هـذه النظرة المزهـوة إلـى جسـمهـا ، وذلك التعـشق المفتـون لذاتها .

ونستطيع أن نقـول إنها لم يسبق لهـا أن رأت جسماً أبداً فـما تلبسه من أردية فضفاضة كان يحجـب عنها تفاصيل جسمها كان يحجـبه عن الآخرين .. وعـدم استعمـالها لأى مسـاحيق أو طلاء

لوجهها أو صباغ لشعرها لم يعقد بينها وبين المرآة تلك العلاقة الحميمة ، التي تقضي فيها الساعات تتفحص نفسها كما تفعل الأخريات .

كانت الأخت تيريزا نسيجاً وحده بين النساء .

كانت أشبه بهاملت الحائر .. المشغول العقل والفؤاد .

كانت عاشقة للطبيعة والحياة محبة للمعرفة ، سابحة بعقلها وراء علل الأشياء ، تتساءل ، وتبحث عن الحياة فى بكارتها لتستلهمها الجواب .

ولهذا صفقت بيديها كالطفلة فى ذلك اليوم القائظ من أغسطس حينما قالت لها رئيسة مدرسة الراهبات أنجيلا ، إنها اختارتها لتشرف على رحلة المصيف ، وأنها حجزت فندقاً منعزلاً فى شاطىء غير مطروق ، لتقضى فيه الراهبات شهر صيف جميل بعيداً عن الفضول والازدحام .

إنه لقاء آخر بالطبيعة ..

بالسماء والبحر والرمال البكر ..

بالليل والصمت والسكون حيث لن تسمع إلا همس الطبيعة فى أعماقها ، وحيث كلمة السر تقولها الروح ، ويفشيها الليل والصمت .

أية سعادة :

كانت تيريزا تجهز حاجياتها القليلة فى لهفة وكأنها ذاهبة فى لقاء حبيب .

وما أقل حاجيات تيريزا فى المصيف .

لم تكن تعرف شيئاً عن الأرواب البشكير الأنيقة ومايوهات البكينى ، والشباشب المحلاة بفصوص الفيروز والبنطلونات الهيلانكا والقبعات الملونة .

وإنما هى مثل عسكرى المرور كل ما يعرفه عن الفرق بين الصيف والشتاء هو الأفرول الأبيض بدلا من الأفرول الكاكى .

وأفراول تيريزا ذو أكمام فضفاضة وهو ينسدل حتى القدمين..

وعلى الرأس كاب أبيض يغطى الشعر كله ..

■ ■ ■

وما أسعد تيريزا حينما التقت بالبحر .

إن وقفة الشاطىء أشبه عندها بالوقفة أمام محراب ، وهذا البساط الأزرق هو كمائدة مذبح مصنوعة من الزمرد ..

والرمل الأبيض اللؤلؤى كأنه ماس مسحوق ..

وذلك النسيم الذى يتخلل اللحم ويعانق الخدود ..

وذلك التناسق الموسيقى بين تشكيلات السحب وألوان الغروب .

وتيريزا النشوانة فى غرفتها بالفندق تطالع مصادفة تلك المرآة الكبيرة المنصوبة على الحائط ، وترى لأول مرة ذلك التناسق الموسيقى الجميل بين أجهزة جسمها ، خصرها الدقيق المرهف وصدرها النافر ، وكتفيها المستديرين فى نعومة ، وردفها الممتلئين وحبائل شعرها الثرى مثل سنابل القمح ، وجيدها المرمرى وهو يحلق من بين كتفيها فى انسياب رشيق ، وعينيها الواسعتين كبحيرين من عسل وأنفها الدقيق المتسائل .

وقفت مبهوتة لحظة .

وكأنها ترى لأول مرة امرأة لا تعرفها .

وغضت من بصرها فى خجل غامض وتضرجت وجنتيها بحمرة قرمزية .

وعادت لتختلس النظرات فى حياء وانفعال إلى تلك المرأة البضة كبرعم مغسول بالندى وغمغمت فى صوت خافت مضطرب .. تيريزا .

وكأنها تنادى حقيقة مغيبة فى أعماقها ، وتتعرف على نفسها

التى تاهت من ألوف السنين .

وراحت تتحسس شعرها وعنقها واستدارة كتفيها بأنامل نحيلة مرتجفة مبهورة .

وشعرت بأن الدم يصعد إلى رأسها ، واجتاحتها فورة من الحمي والعنفوان ، فأسرعت ترتدى ثيابها فى ارتباك كأن هناك ألف عين تراها من ثقوب الباب ، ثم خرجت تجرى على الشاطىء تطلق ساقيها بأسرع ما تستطيع وكأنها غزالة يطاردها سهم صياد .

وكان الشاطىء خلاء فى تلك الساعة من الليل ..

موات .. وسكون ..

لا صوت سوى تلك الوشوشات الرتيبة يهمس بها الموج المتكسر على الرمل .

وكتبت تيريزا فى مذكراتها تلك الليلة ..

كنت أرتجف بشعور غامض وكأنما انفجرت داخلى ينابيع الحب والنشوة دفعة واحدة ، فغمرتنى واكتسحتنى مثل قشة فى عباب .

كانت تستبد بى رغبة فى احضان كل شىء .. كل شىء كنت

أريد أن ألقى بنفسى عارية فى البحر وأحتضن الموج وألمس حقيقته وأباشرها وألثم روحه وأشمها .

كنت أقول لنفسى : لن يرانى أحد فى تلك البقعة المنعزلة من الشاطىء فى تلك الساعة من الليل .

لا أحد سوف يطلع على جسدى العارى سوى الله ، والله يرانى دون أن أخلع ثيابى والله يرانا جميعاً على حقيقتنا .

إنه لا يخفى عليه شىء ، يستوى عنده أن نكون عراة أو محجبين إننا دائما عراة أمام بصيرته النافذة .

كان البحر ينادينى وكأنه حضن أمى .

وخلعت ثيابى فى نشوة طفلة تريد أن تهرع إلى أمها لتحميها وألقيت بنفسى فى الماء ، وارتجفت أعضائى لذة وسعادة ، وشعرت بأن الطبيعة تحتضننى وأنا أحتضنها ، وشعرت بدغدغة مخدرة تسرى فى بدنى كله ، وشعرت بأنى أذوب وأتلاشى وأفقد فرديتى وأصبح مجرد جزء من كل ، مجرد خلية فى جسم رائع متكامل اسمه الطبيعة .

وخيل إلى كأنما الوجود يهمس إلى .

ومن أعماق الظلام والسكون جاءنى صوت أليف أعرفه ، إنه صوت ابن عمى الذى تركته منذ سنوات فى أسيوط .

أنا أحبك يا تيريزا وسوف أنتظرك .

لن أتزوج ما دمت حرمت على نفسك الزواج بدخولك سلك الرهبنة .

سوف أنتظرك حتى أموت أو تعودى إلى ، أنا أحبك ..

وفهمته ، فهمته لأول مرة فى تلك اللحظة ، وعرفت ما الذى يشعر به حينما يقول ، أنا أحبك ، سوف أنتظرك حتى أموت .

وفهمت لماذا تنقنق ذكور الضفاضع بالليل لتنادى إناثها ، ولماذا تتجمل الطواويس ، ولماذا يتلون الورد ليجذب الفراش فيلقحه ليخصب ، ولماذا للأسد لبدة من الشعر الثائر وللديك عرف ، ولماذا يطن البعوض ويغنى البلبل ويصدع الكروان ، ويهدل الحمام ويصهل الحصان فى لحظة لقائه مع أنثاه ، ولماذا تضىء الحباحب كأنها القناديل لتدل رفيقاتها على مكانها .

ولماذا أوقد الله كل تلك الشموع فى محفل الحب والجنس .

ولماذا بارك الله بيده هذه الشجرة من التزاوج .

ولماذا وشج بيده هذه العلاقات وعانق بينها .

ولماذا خلقنا الله ممدودى الأذرع تائقين إلى العناق .

فقد كنت فى تلك اللحظة ممدودة الذراعين أنا أيضاً تائقة إلى

عناق .. تائقة إلى عناق .

لم يكن صوت الخطيئة هو الذى يتكلم داخلى وإنما صوت الطبيعة وإرادة الله .

وكيف تكون إرادة الله خطيئة ؟

إنها إرادة الله أن نتعانق تحت خميلته الظليلة .

وهذه الموسيقى صوته وهذه الفرحة فرحته وهذه الألوان المبهجة زيناته التى علقها بيديه لترقص تحتها كل الخلائق .

وشعرت برغبة فى أن أغنى وأزغرد وأسبح عارية إلى الأبد بلا خجل .. فليس فى الطبيعة ذلك الشىء الذى اسمه الخجل .. إن الأشجار لتتباهى بأزهارها وهى أعضاؤها التناسلية وتضعها فى أظهر مكان وكأنها نياشين شرف وكأنها فخورة مزهوة لأن الله خلق لها هذه الأعضاء التى تلد بها وتتكاثر وتنجب ملايين البذور.

رأيت البراءة حولى فى كل شىء ،، وتساءلت فى حيرة .

لماذا لم يقل لنا الآباء الذين عاشوا حياتهم يتأملون الزهر والثمر وانقطعوا فى البرية يستمعون إلى الطير ويصغون إلى وحوش الفلاء ، ما قالت لهم الرمال والفيافى والنجوع الخضر أم أنهم لم يسمعوا شيئاً ، ولم يفهموا تلك الصرخة التى تصرخ بها كل الأحياء فى ضراعة لكى تستمر وتخلد .

لماذا وصموا كل شىء بوصمة الخطيئة ؟

وكيف تكون الطبيعة خطيئة ؟

وكيف تكون أعضائها خطيئة ؟

وكيف تمحو إرادة الله ما رسمته إرادة الله ؟

إلهى بوركت يدك التى رسمت الجمال على كل الخلائق .

إلهى ما أجمل كتابك هذا الذى كتبته من سطور الليل والبحو والسماء والنجوم ، ومن صفحات الموج وتغريد البلابل وزقزقة العصافير .

إلهى .. كيف أخجل من نفسى .. وقد خلقتنى ..

■ ■ ■

كانت الأخت أنجيلا رئيسة الدير تنظر مشدوهة فى الاستقالة التى قدمتها تيريزا من سلك الرهبنة ، وتقرؤها مرة بعد مرة غير مصدقة .

وقالت أنجيلا فى صوت حزين وهى تنظر إلى تيريزا الواقفة أمامها فى دهشة .

– أما عدت تحبين الله ياتيريزا ؟

أجابت تيريزا بصوت يختلج بالعاطفة :

- بل أحبه .

وسكتت لحظة لتردف بصوت خافت :

- إنما أحبه الآن بطريقة مختلفة

وتمتمت أنجيلا بصوت خافت مرتجف ..

- تيريزا .. إنى لا أفهم ..

- أختاه المقدسة .. إنما حاولت أن أفهم أنا الأخرى .. ورأيت أنى سوف أخدم الله أكثر وأنا خارج الدير .

- تيريزا .

- إنما أردت أن أكون أكثر محبة للدنيا والناس ..

- تيريزا .. كفى هذه خطيئة .. أنت تعطين نفسك للرجل بدلاً من أن تعطيها للرب .. وهذا دنس .

- أستطيع أن أصون جسدى من الرجل ولكن كيف أصون عقلى من التفكير فيه ، إن ما أبذله من جهد سوف يعذبنى أكثر ، إنى سوف أكون كمن أرادت أن تصون جسدها من عضة الكلب فأعطته عقلها ينهشه ، وهذا أبشع .

- رباه كفى ، هذا تجديف ، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة .

وحينما خرجت تيريزا ، واختفى آخر صوت لخطواتها فى الممر الطويل المحاط بالأشجار .. كانت أنجيلا تمسح دمعة انحدرت على خدها وتهمهم لزميلتها الأخت العجوز لورا ..

- أكان خطأ منى أنى أرسلت تيريزا لتتعلم ، أيخرج كل مَنْ تعلم عن ناموس الدين وطريقه . لماذا يتركوننا بعد قراءة تلك الكتب ؟

وردت لورا :

- ما كان يجب أن يقرءوا تلك الكتب .. فما يوجد شىء يستحق أن يقرأ فى الدنيا سوى الكتاب المقدس .

- بل إنى لأحب كتابى المقدس أكثر كلما قرأت الكتب الأخرى.. ولا أفهم كيف لا يقربنا العلم من الله وهو الحقيقة الكبرى لا أفهم.

وكانت الأخت لورا العجوز الشديدة التدين ما زالت تصر على أنه لا يجب أن يقرأ شىء سوى الكتاب المقدس ، ولا يجب أن يتعلم هؤلاء الأطفال سوى الكتاب المقدس ، وأن ماعدا ذلك تجديف ..

وكانت أنجيلا تهمس والدموع تخنقها ..

- ولكنى لا أفهم .. لا أفهم ..

السجين

المريض الجديد الذى جاءوا به من السجن وأغلقوا عليه باب الغرفة رقم ٥ بالمستشفى ، لم يذق طعم النوم من شدة الحر .

لقد مضت عليه ساعات وهو يذرع الغرفة ببصره ويتأمل نافذتها العالية التى تسدها القضبان ، فلا يجد فرقاً يذكر بينها وبين الزنزانة التى كان فيها .

ربما كان السرير والكومودينو ، والطبيب الذى يمر عليه والممرضة التى تعطيه الحقنة ، تؤلف نافذة إضافية يطل منها على الخارج ، ولكنها زنزانة فى النهاية ، وكل الزنازين واحدة .

وتلفت نحو شق فى الحائط تدخل منه الشمس فى خيط رفيع كذيل البرص ، ثم عاد فركز بصره على النافذة التى تسدها القضبان .

وكان وهج الشمس يلمع فى النافذة والحر يجثم على

المستشفى مثل خيمة من اللهب ، والمرضى يغطون فى النوم ، وقد تراخوا على الأسرة مثل شرائح اللحم المسلوق وقد فقدوا القدرة على الحركة إلا هو فقد ظل يتقلب فى فراشه .

وما لبث أن قام ، وغادر الغرفة ، ومشى طويلا فى الممر حتى بلغ الباب ، ومن الباب كان يرى خيمة الضابط النوبتجى ، وشاهد الديدبان يدور كالنحلة فى الصحراء حول مبنى المستشفى وقد حمل بندقيته ..

وانتظر حتى اقترب منه الديدبان ثم قال له فى صوت خافت :

– شاويش عطية .. إدينى سيجارة .

– ممنوع .

– طيب عاوز أكلم حضرة الضابط .

– ممنوع .

– طيب عاوز أطلع أقعد شوية على الباب .. أنا حاموت جوه ، نفسى حايتخنق .

ممنوع بقولك يا فندى .

– هو أنا حاهرب ياشاويش ، دنا جنبى مفتوح وعامل عملية .

– مش شغلى ، الأوامر كده .

وكان وجه الشاويش جامداً وهو يتكلم عن الأوامر ، وكان

التعب يبدو من تحت ملامحه الجامدة ، وعيناه تتألقان كجمرتين ملتهبتين .

كان الشاويش مريضا .

ومضى يترنح ليكمل داوريته ، بينما ظل السجين واقفا يتأمل شبحه الطويل النحيل وهو يختفى عند المنحنى ، ويفكر فى الحر الذى يلسع ظهره كالكرباج .

وظل واقفاً فى مكانه مدة طويلة ، لا يدرى كم من الزمن ربما ساعة ، أو أكثر ، ثم أفاق أخيراً على صوت أقدام تقترب ، وشبح نفرين يحملان شيئا فى محفة ..

وحينما اقتربت الأشباح ، استطاع السجين أن يميز الشىء المحمول فى المحفة .

كان الشاويش عطية نفسه وهو يهذى من ضربة الشمس .

■ ■ ■

وفى المساء .. نزل السجين مرة أخرى ليقف أمام الباب ، وكان المنظر هو نفس منظر الصباح ، لم ينقص منه شىء ، إلا الشاويش عطية الذى مات ، والشمس التى غابت وحلت محلها ملاءة سوداء تلف الصحراء كلها .

وكان الديدبان الجديد شاويش عوضين ، يذرع الرمل أمام الباب وقد حمل بندقيته .

وفكر السجين لحظة .. ثم نادى بصوت خافت :

– شاويش عوضين .. إدينى سيجارة .

– ممنوع .

طيب عاوز أكلم حضرة الضابط .

– ممنوع .

– طيب عاوز أطلع أقعد شوية على الباب ، أنا حاموت جوه .

– ممنوع بقولك يا فندى ..

– هو أنا حاهرب ياشاويش دنا ..

– مش شغلى ، الأوامر كده .

ومضت لحظة أخرى خيل للسجين فيها أنه يرى الأشياء بالعكس ، حتى لقد بدأ يتساءل .. مَنْ يكون سجين هذه الأوامر ومَنْ الذى يذهب ضحيتها .. هو .. أم الشاويش .

لقد مات عطية .. أما هو فما زال حياً يتنفس ملء رئتيه ، وخيل إليه وهو يطل من القضبان أنه حر طليق فى غرفته ، وأنه يطل على شاويش غلبان مسجون فى الصحراء ، لا يدرى أحد متى تضربه الشمس هو الآخر فتقتله ..

مـادة الأحــلام

كــان ضمن أعـمالى فى ذلك اليـوم .. أن أقابل صـاحب فيـلا السلام ..

فيلا السلام ؟ نعم هى بعينها فيلا السلام !!

وقرأت الاسم مرتين وسرح خيالى .

وشعرت بسعادة لا حد لها .

إنه الحلم الذى ظللـت عشـرين سنة أحلم به وقـد تحـقق ، أن أدخل ذلك القصر الرائع الذى كنت أدور حوله وأنا طفل ..

وعادت بى الذاكرة إلى تلك الأيام الخوالى وأنا صـغير ، أجرى فى الشارع ببطنلون شورت ، وقـميص مبهدل نصفـه محشو فى البنطلون ونصفـه مدلى على جـانبيه ، وحذاء ربـاطه مفكوك على

الدوام ، وفى يدى كراسات الحساب والعربى ، وكتاب الديانة ، ولفافة بها خبز وجبن هى غذائى طول اليوم .

وأنا أمر كل يوم فى طريق المدرسة وفى طريق البيت على هذا القصر العجيب ، فيلا السلام الذى كنت أتوقف عنده ، وأشب على سوره .. لأطل على الحديقة فى الداخل ..

وعاد إلى ذهنى إحساس الانبهار الذى كنت أشعر به كلما رفعت رأسى الصغيرة ورحت أتجول بها فى مشارف القصر .

السلم الرخامى الصاعد فى تؤدة وجمال كأنه صاعد إلى السماء ، والببغاء الأحمر الذى يقف فى قفصه عند المدخل ، ويتلفت إلى كل مَنْ يصعد ليصرخ فى وجهه بنبرات واضحة ، أحبك ، والنافورة التى تخرج من فم أسد صغير من المرمر وسط الحديقة .

والأشجار العجيبة التى لا أعرف من أى مكان جمعها ذلك البستان الهرم ، أشجار الحور والزيزفون والليلك ، وعرائس اللبلاب والورد البلدى المخصب بحمرة دموية ، المتهدل على الأسوار ..

وما أكثر ما سرقت وروداً من هذه الورود البلدية ورشقتها على صدرى ورحت أشمها فى تلذذ .

وأشجار الليمون والجوافة والمانجو والموز ، والفسقية التى كان يقول عنها الأولاد إن فيها جنية تخرج بالليل لتخطف الأطفال.

والبرج الرشيق الجميل الذى يصعد ويصعد ويكاد يخرق السماء بقمته الرفيعة المدببة كسن الدبوس ، وعليها ذلك التمثال لديك منفوش له عرف أحمر ، يبدو وكأنه يؤذن .

وكان من عادتى أن أطيل النظر إلى ذلك الديك وكأنى أنتظر منه أن يصيح فعلا ويؤذن فعلا .

وكنت أسمى البيت ، البيت أبو ديك .

البيت أبو ديك .. !!؟ نعم هو نفسه .

ووضعت يدى على خدى وسرحت لأعود بكليتى إلى هذه الصورة من الشوق والحنين الغامض .

كنت أشتاق وأتحرق شوقاً كلما مررت بذلك البيت ، لأن أدخله، وأتسلل إلى غرفاته ، وأتفرج على أبهائه ، وأقف تحت تلك النجفة التى كنت أراها تتلألأ من الشارع ، وكأنها عنقود من النجوم .

وكنت أتمنى لو كنت صاحب ذلك القصر .

وهل أستطيع ؟

وهل يمكن أن أكون صاحب ذلك القصر .

لا بد أن صاحب هذا القصر هو الجن نفسه .

وكنت أحلم في تلك الليالي الخوالي وأنا أغمض عيني أني أدخل القصر ، وأنام على سرير من ذهب وآكل في أطباق من فضة ، فهكذا يعيش ذلك الرجل صاحب ذلك القصر ، وهكذا ينام ويأكل .

ولا شك أنه يشرب كثيراً من العسل .

وكنت أحب العسل كثيراً في تلك الأيام .

ويفطر بالجاتو ، وكنت أحب الجاتو كثيراً .

آه ، لكم تمنيت أن أفتح عيني فأجد نفسي صاحب هذا القصر ولكم درت حول أسواره ، ورشفت رأسي بين خصاصها ، وبقيت ساعات أتفرج ، على ما يجري داخل هذا المكان الخرافي .

ولكم طفشت من المدسة ورابطت على باب هذه الجنة أراقب سدنتها وملائكتها ، وهم يروحون ويجيئون .

واليوم .. وبعد عشرين سنة ، وقد كبرت وأصبحت موظفا كبيراً في الأقاف ، انتدب لمهمة ألتقي فيها بصاحب هذا القصر .

حقا ، إنها لسعادة ، سعادة لا توصف .

والحق أني كنت سعيداً - سعادة لا توصف ، وأنا أعد الأوراق اللازمة ، وأجمع أطراف القضية التي أذهب بصددها .

كنت أشعر أنى ذاهب إلى طفولتى ، إلى أحلامى ، إلى موعد مع امرأة عشت طول حياتى أعشقها .

وكأن وتراً فى قلبى يرتجف وكأنى ما زلت طفلا ، وكأن هذه الشعرات البيض التى بدأت تزحف على رأسى ليست إلا وهما .

وفى الطريق كنت أستعيد طفولتى مع كل خطوة ، وكنت أتذكر مواطىء أفراحى وأحزانى ، وأرى مشاعرى مرسومة على كل منعطف .

من كان يصدق .. ؟ أنى سوف أدخل إلى البيت أبو ديك أنا لطفى عبد السميع الذى كان يأكل الجبن القريش والخبز ويحملق من خصاص هذا السور منذ عشرين سنة .

ما أسرع ما تتغير الدنيا .

وحينما دخلت من البوابة كان أول شىء نظرت إليه هو الببغاء.. وكان يبدو عجوزاً جدا ، ولم يكن ينطق كما كان ينطق زمان .

وكان السلم متربا والفسقية جافة .

وكانت الجدران باردة ..

وكان الخادم الذى صاحبنى إلى غرفة السيد صاحب القصر

لا يتكلم ، وكانت الممرات الطويلة الموحشة وهى تردد وقع خطواتنا تبدو مثلجة شديدة الرطوبة ..

وكنت أتلفت حولى فى خوف ورهبة ، وحينما دخلنا إلى حجرة السيد صاحب القصر وهى حجرة نوم ، لم يتحرك السيد من مكانه ، وظننت أنه يستعلى على موظف بسيط مثلى ، وخطر لى أن أثور لهذا السلوك ، ولكنى حنما اقتربت منه وجدت أنه مريض مشلول ، فى فراشه لا يتحرك .

وكان يكاد يتكلم ..

قال لى إن ابنه الوحيد الذى جئت لآخذ توقيعه مريض فى مستشفى الأمراض العقلية .

وبصم بأصبعه على الأوراق التى قدمتها له وقال لى بصبر نافذ ، وقد بدأ يسعل سعالا لا نهائياً .

هل تريد سيئاً آخر .

ولم أكن أريد أى شىء آخر .

وكانت النجفة الهائلة كعنقود النجوم تهتز فوق رأسى ، وكان لها تأثير آخر غير التأثير القديم ، كانت ترعبنى بصليل الكريستال الذى يخرج منها .

وحينما كنت أنزل على السلم الرخـامى فى بطء وبقلب مثقل ، كان الخـادم يقول لى إن السيـد مشلول هكذا فى فـراشه منذ ١٥ سنة ، وإن ابنه الوحـيد قد ولد ضـعيف العقل ثـم اشتدت حـالته حدة مع المراهقة ولم يعد هناك أمل فى شفائه .

– هل تتفـضل قليلاً فى غرفـة الاستقبـال لتستـريح وتشرب فنجاناً من القهوة .

– لا .. أشكرك ..

– لعلك لا تحب القهوة .. عندنا شاى جيد وجاتو .

– لا .. لا .. أشكرك .

– إن الجو بارد ، وغرفة الاستقبال مكيفة ، وتستطيع ..

– أشكرك لقد انتهت مهمتى ..

وحينما كنت أضع قدمى على الباب ، كنت أشعر أن هذا القصر الذى سكنته أوهامى عشرين عاماً يتبخر .

يتبخر تماماً ، كمادة الأحلام .

رسالة من الجحيم

هل يمكن أن تكون البراءة ذنباً ، والفضيلة ورطة ، والعفة سقطة تستدعى الكفارة ، والندم .. أشد الندم .

إن أحكامنا تتوقف على الزاوية التى ننظر منها إلى الأشياء ، وإذا وقفنا على رءوسنا . فيمكن أن نرى الأشياء مقلوبة ، ويكون هذا أمراً طبيعياً ، ومع هذا فزوجتى لم تكن تقف على رأسها لكى ينقلب كل شىء فى نظرها .

وأقدم لكم زوجتى أولاً ، السيدة فريدة علم الدين .

اسمها يدل على أنها من بيت قديم محافظ ، وهذا هو الواقع . الشعار إياه الذى يردده كل العرسان فى باب إعلانات زواج ، بنت طيبة من بيت قديم محافظ تقدر الحياة الزوجية مستعدة لفرش أربع غرف .

الشهادة لله إنها فرشت خمس غرف وصالة ، وإنها طيبة ، على الأقل على ما يظهر من سلوكها فى أيام التعارف الأولى .

ولكن الطيبة أيضاً أمر يختلف تفسيره عند كل طيب وطيبة . فيمكن أن تكون الطيبة هى الغفلة ويمكن أن تكون العبط ، وفى قول آخر إنها الكرم واليد السخية وقول ثالث إنها الدروشة وحج بيت الله والصلوات الخمس فى أوقاتها .

وفى قول رابع إنها التوكل وترك كل شىء للخلاق ، وفى رأى مودرن أنها المجاملة والتملق واستقبال كل الناس بالأحضان والقبلات ومسايرة الزمن . وفى رأى مودرن آخر هى الجد وقول الجد ..

المسألة إذن تحتلف فيها وجهات النظر ..

الكلمة واحدة .. ولكن لها ألف معنى ..

ولهذا لن ينفع أن أقول لك إن السيدة فريدة علم الدين من بيت طيب وأنها طيبة . وإنما يجب أن أدخلك معى بيتها بيت الهنا الذى دخلته لترى ماذا فعلت بى طيبتها .

كانت أول كلمة قالتها لى :

ألا يكفيك أنك قد تزوجت بكراً .. والأبكار لا وجود لهن فى هذا الزمن ، أشهد أنها كانت بكراً بالفعل ، أما بقية الجملة فلا أستطيع

أن أجزم بصحتها فليست عندى إحصائية فيها عدد الأبكار من بنات هذا الزمن ، وإن كنت أشعر بالهشة من السؤال ، فهل مفروض أن أقبل الأرض وأرجع أمامها شاكراً حامداً لأنها بكر ، وهل هذا شأنها أم شأنى ؟

هل احتفظت ببكارتها احتراماً لجسمها وصيانة له ، أم أنها احتفظت بها كميدالية تقدمها عند الطلب وتتقاضى ثمنها ..

يبدوا أنها كانت لها وجهة نظر مختلفة جداً فى مسألة البكارة هذه . لأنها راحت تقاضينى ثمنها ، وكأنها ورطة وقعت فيها وذنب يستدعى منها أشد الندم ، فقد فعلت هذا من أجلى ، ولهذا أنا لا أستحق النعمة ، يالها من غلطة .

لأعوضها إذن عن هذا التلف ، أقصد عن هذه العفة أقصد عن هذه الطهارة .

كل يوم مر فى حياتها أبيض بلا ماض تطالبنى بجريرته .

وكل خيانة تسمع أن النساء يرتكبنها ولا تفعلها تنقلب نكداً على رأسى ، فهى شريفة بين نساء كلهن كلاب ، وهى عفيفة بين زوجات كلهن قذرات ، حاضر على عينى ورأسى ، ماهو المفروض أن أفعله .

أى شىء لا ولن يرضيها .

لا بد أن أطفح الدم ، شـجاراً ونقاراً كل ليلة انتـقامـا منى لهذا الشىء الذى لم تفعله ..

وأنا رجل لى عمل .

وهى لا تفهم كيف يمكن أن يكون للزوج عمل غير زوجته .

أقـول لها كل يـوم إنى مهندس مـسـئول ، وإنـى أقوم بعـمل جسيم، هو تخطيط مدينة ، وهو عمل يحتاج إلى كل أعصابى .

أى مدينة .. !!

وهل توجد مديـنة سواها هى وسوى حبهـا ، أدور فى فلكها ، هى التى ادخـرت كل شـبابـهـا من أجلى ، لم تنـظر إلى رجل . ولم تعط نفسها لإنسان .. ولم .. ولم .. ولم .. واحـتفظت بنفسها بكراً (أشهـد وأبصم بالعشـرة أنها كانت بكراً .. ولـكن هل معنى ذلك أن أقتل نفسى) .

تغار من نجـاحى وتتمنى أن أفـشل ولا يعود لى عـمل سواها ولا يهم بعد هذا أن نجـوع ونتعـرى مادمنا معـا ياحبيـبى ، كذب طبعـاً فأنا أعلم أنها أحبـتنى لنجاحى ، وأنى لو أصبـحت الفاشل الخـائب الذى يتبـعـها كظلهـا لما وجـدت فى الشىء الذى تحبـه ، ولأصبحت موضوعاً منتهياً ، هو الموضوع الذى قتل بحثاً ولم يعد فيه شىء يثير .

تحبنى وتتمنى أن تـكرهنى ، تتمنى لو ضبطتنى متلبـساً بفعل شنيع يسقطنى من عـينها لتستريح وتقـول لكل واحد . انظر ماذا فـعلت من أجله ومـاذا فـعل الكلب ، أنا التى حـافظت على نفـسى لم يمسنى بشر ولم ينلنى إنسان .. ولم .. ولم .. ولم .. تقول هذا لا لتقنعـه ولكن لتبرر لنفـسها مسـتقبلا بـهيجاً خـالياً من الموانع تنوى عليه فى ضمـيرها .. فما دام الرجـال كلهم كلاب .. ورجلها أكثرهم نباحاً .. فيـالها من غطلة لا يجب أن تتكرر تلك العفة ، تلك الورطة التى تورطت فيها ..

تقول لى كل يوم ، لقد تغيرت ، حبك تغير ..

طبعاً حبى تغير إلى أحسن .

كان حبى قبـلات وضمات فأصبح حبى هو أن أمنحـها عمرى كله ووقتى وراحتى من أجل أن نبنى معاً حياة أعظم لنا وللناس .

كلام فـارغ ، فين أيام شـهر العـسل . كنت مـشغوفـاً بى كل لحظة، لا أفكار فى ذهنك سوى أين نسهر هذا المساء .

يا ست حب شـهـر العـسل هو الحب الصـغيـر ، كـان كل منا يحاول أن يعطى للآخر ، أما الآن فنحـن يحب بعضنا بعضاً الحب الكبير ، نحاول أن نعطى حبنا للدنيا وللمجتمع ، أنت تعطينه طفلاً، وأنا أخطط مدينة .

كلام فارغ .. مجتمع إيه .. وبتاع إيه .. أنت لم تعد تحبنى .. دائما سرحان تفكر .. لا بد أنك مشغول بامرأة أخرى ، وهذه قسمتى وهذا نصيبى المهبب ، أنا التى حافظت على نفسى لم يمسسنى بشر ، ولم يقربنى رجل .. ولم .. ولم .. ولم .. ولم.. وأخذتنى بكراً .. خسارة فيك وفى عينيك ..

انصرافى إلى عملى لا يبعث فيها إعجاباً أو احتراماً ، وإنما يبعث فيها الغيظ والغل والحقد ، تقتحم على لوحاتى وتنظر إليها كأنها عشيقة أو ضرة لو استطاعت لفتحت رأسى لتفتش فيها ، ولحجرت على أفكارى .

تقول لى إنها تحبنى ولكنها فى الواقع تحب نفسها ، فكل ما تعطينى من نفسها تندم عليه وتحاسبنى عليه وتقاضينى عليه، حتى ماضيها الذى لم أكن شاهداً فيه تطلب منى تعويضاً كاملا عن ما فيه من عفة وفضيلة .

الحب عندها هو أن أكون فى كل لحظة مبذولا من أجلها مكرساً من أجل ملاطفتها ومجالستها..

يبلغ بى العذاب أحيانا للدرجة التى أتمنى فيها لو كنت تزوجتها راقصة بشلن فى شارع محمد على وقد مرت على ألف رجل ورجل . لتتركنى لراحتى وحريتى . ربما لو كانت أخطأت لكانت أصبحت أكثر فهماً .

وفى لحظات اليأس التام والاختناق حينما أشعر بأنها تجثم بمطالبها على مخى . وحينما تصبح المشكلة هى حرية أو لا حرية .

ساعتها أطلب الحرية بأى ثمن بالطلاق .. بالفراق .. بالموت .. أنجو بجلدى ولو بسلخ جلدى .. فلا سعادة أصيلة بدون حرية وملعون أبو البكارة اللى بالشكل ده .. فماذا يعنى كونها زوجة بلا ماض ، إن ما تفعله وليس الشىء الذى لم تفعله هو القضية ..

إن ما نفعله هو المهم .

وليس ما لم نفعله .

إن ما نفعله هو حقيقتنا .. هو شخصيتنا . هو مساهمتنا التى نكافأ عليها . أما أن نتفاخر لأن شيئا ما لم نفعله فهى نكتة .

والغيرة يا سادة .

الغيرة العمياء التى تتلمس الأسباب فى دقة تليفون أو نظرة شباك أو خطاب أو شعرة مجهولة النسب على الجاكتة أو تذكرتين سينما منسيتين فى الجيب الجوانى (وهما تذكرتان نكون قد ذهبنا بهما أنا وهى والله العظيم) .

هذه الغيرة ليست دليل حب ، وإنما ذريعة تسلط وتحكم ووسيلة للضغط والقهر ، وإحكام الإقفال والترابيس حول القلب والمخ وخيط من حرير يلتف حول الرقبة حتى يخنقها ، وحتى

تبلغ الروح الحلقوم ، وحتى أهتف أنا المتهم الغلبـان مقسماً بأغلظ الأيمان إنى أحبها ، والله العظيم أحـبها وحدها فقط ، لم ولن أنظر إلى غيرها ، فى أى يوم .. وفى أى بلد .. وفى أى قطر ..

ولكن لا ضمان ، مَنْ يؤكد لها أن كلامى هو الصدق ؟

الغباء الشديد يريد أن يتأكد .

وأنا لا أستطيع أن أقـدم ضمانا أكـثر من القسم وأكـثر من أن أبكى وأتشنج وأحلـف على نفســى بالعمــى وعلى أهلى بالموت إذا كنت كاذباً .

ولكن الغباء الشديد يريد أن يتأكد .

مَنْ يضمن لـها أنى لم أكذب فى جـميع هذه الأقسـام المغلظة ، وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا .

أنتحر لأقدم الدليل .. ؟!

أشنق نفسى ؟

وبعد المحاكمة الرهيبة يعود الغباء ليتكلم .

– أنت لم تعد تحبنى كما كنت تحبنى الأول .

– وأى دليل أقدمـه على حبى أكـثر مما أفعـل كل يوم . أشقى

وأتعب ، وأهلك وأضع بين يديك ثمار تعبى .

– أنا لا تهمنى الفلوس (كذابة فهى تعتم جداً بالفلوس ولم تتزوجنى إلا بعد أن اطمأنت إلى إيرادى) .

– إنها ليست الفلوس إنها العمر وشقاء العمر وكد الذهن وعرق الجبين الليالى الطوال وسهاد السنين أسلمه لك راضياً مرضياً هل يفعل هذا زوج يحب أم زوج يكره ألست عندك ذرة عقل .

لا عقل .. لا ذرة عقل ..

وإنما غيرة حمقاء وأنانية تعمى الرؤية ورغبة فى الامتلاك والتحكم والتسلط باسم الحب ، الحب الغلبان المسكين المفترى عليه .

احترت كيف أفتدى حريتى ..

حاولت أن أفتدى نفسى برقبتى بفلوسى .. بالجنون .. بالتشنجات بدون أمل ..

ولكننى حر .. وحريتى زادى وقوتى ..

– وأنا أجمل امرأة فى مصر .

– الجمال ليس تقاطيع .. الجمال سجايا وخلق وسماحة .. وأنت لا تكشفين لى إلا الوجه القبيح من وجودك .

– أنت لا تشعر بأنوثتى ولا ترى فتنتى ، إنى أوقف المرور فى أشد الشوارع ازدحاما ، ولا أعود مرة إلا وعربة تطاردنى من يمينى وعربة من شمالى ..

– أنا أنظر إليك على أنك زوجة لا على أنك صيدة .

– أنا أنجبت لك أسرة وجعلتك أبا ، بعد أن كنت صعلوكا ..

– أسرة ستتربى فى جو من الجنون وستكون ضحيتك لا هديتك .

– أنا نظفتك ولبستك وجعلتك بنى آدم .

– أنا لن أكون آدميا إلا لحظة أفارقك ، لحظتها سوف أسترد حريتى واحترامى لنفسى ، وأعود إنساناً أنا طهقت .. طهقت ..

هذه هى حكاية السيدة فريدة علم الدين .. زوجتى .. سليلة البيت المحافظ .. ربة الصون والعفاف التى بلا ماضى ..

وبلا مستقبل أيضاً .

درس فى الخشونة

كانت خيمتنا منصـوبة فى العراء .. وكانت هذه أول تجربة لى أخرج فى رحلة من هذا النوع ، أحـمل على ظهرى زمزمـية وأنام على سرير سفرى من الخيش وأمشى فى وهج الظهيرة فى الرمل وفى التـراب ، وأتناول غـذائى من التـمـر والخبـز الجـاف وعلب السـردين بدون الماء المثلج وزجـاجـات الصـودا ، وبدون فنجـان شـاى فى الهيلتـون ، وبدون الاسـتـرخـاء السعـيد بعـد الحمـام الساخن فى البيت .

كان الاستـرخاء هذه المرة على أرض مغطاه بالشوك مـرصعة بالحصى ، والماء الوحيد الممكن الحصول عليه هو ماء مالح من بئر اردوازية ، والقميص الوحـيد الذى ألبسه قـميص تيل كاكى ، أين هذا القـمـيص من قـمصـان النايلون والأرلون الـتى ألبسـهـا فى

القاهـرة ، الله يجـازى الشـيطان .

والشيطـان هنا هو صاحبـى الذى زين لى هذه الحمـاقة وظل يغرينى بهـا حتى اقتنعت ، اقتنعت بأنى بأنـى رجل رخو أمارس حيـاة بليدة مرهفة لا تخـتلف عن حياة النسـاء المترفات ، عيـشة نواعمى ، تنقصها الخشونة والرجولة .

وكنت أنظر إلى صـاحـبى هذا وهو جـالس على باب الخـيمـة يأكل، وأراقـبه وهو يلـتقط التـين ويأكله بتـرابه وطينه فـأشعـر بالاشمـئزاز من هذه القذارة الـتى يسميـها خشـونة ، وأحاول أن ألفت نظره إلى الميكروبات التى يبتلعها بالملايين مع كل قضمة من هذا التين أو الطين فيرد على وهو يبتسم ..

– وما له الطين ؟ .. الـنبات عايش على الطين .. والـورد بيفطر ويتغذى ويتـعشى طين .. الحصان الرشيق الجمـيل القوى بياكل الحـشيش بطينـه . الطيور وجـبتـهـا الرئيسـيـة الرمل والطين ، الحيوانات دى بتعمل إيه فى ملايين الميكروبات اللى بتبلعها .

فأقول له فى غباء ..

– بتعمل إيه ؟

– فيه فـى معدتها أحـماض تدوب الميكروبات وتتغذى عليـها .

الحياة لها ألف حيلة .. المعقمين المحنطين اللى زيك اللى بياكلوا مطهرات وبرمنجنات بيعطلوا حافز الحياة فى أجسامهم وتكون النتيجة إنهم يمرضوا ويفقدوا القدرة على الكفاح ، اسمع نصيحتى ، وكل طين .. أنا جايبك النهارده علشان تأكل طين ..

الله يجازى الشيطان .

وأكلت التين أو الطين .

ورأيته ينزع الخيمة ويخرج المعدات ويحمل المؤونة على ظهره ويذهب إلى العربية الجيب ، فاستبشرت خيراً بأننا عائدان إلى القاهرة فى النهاية بعد هذا اليوم القاسى فى هجير يوليو ، ولكنى رأيته يدير عجلة القيادة إلى اتجاه آخر ويدوس على البنزين لينطلق بالعربة فى طريق طويل متعرج ، وبعد ساعة كنا ندخل فى طريق صحراوى ، ونترك الوادى بألوانه الخضراء وراء ظهرنا ..

- إنت رايح بينا فين ..

- إحنا طالعين على الواحات .

- واحات إيه ياراجل يامجنون ، فيه حد يروح الواحات فى الحر ده .

وتشبثت بيده أحاول أن أثنيه ولكنه كان يزداد عنادا كلما

حاولت مقاومته ، واستسلمت فى بؤس وأنا أعزى نفسى بأنى أكتسب خشونة ، وأنبه حافز الحياة .. إلخ .. إلخ .. ولكنى كنت غير مقتنع بحكاية حافز الحياة هذه .. لأنى قلت بعد لحظات :

- نفرض دلوقت أن العربية غرزت بينا فى الرملة الناعمة دى نعمل إيه ؟

- ما هى لازم تغرز ، وإيه الفرق بيننا وبين التلاميذ اللى طالعين فى رحلة مدرسية إذا كانت العربية مش حا تغرز .

ومنين حاتتربى فيك روح المغامرة ، إذا كنت حاتروح الواحات وترجع زى ما بتروح النادى كل يوم نبقى عملنا إيه .

وكانت الشمس عمودية ، والرمال من حولنا تمج اللهب ، والطريق أمامنا وخلفنا يبدو خالياً تماماً من أى مخلوق ، والصحراء المترامية على الجانبين ليس فيها شجرة أو حيوان أو خيمة أو أثر حياة ، بيداء جرداء تشويها الشمس ، وكان صاحبى يتكلم عن حافز الحياة ، وأنا لا أرى أمامى ذرة حياة .. حلقى جاف ولا أجد القوة لأرد عليه ..

- الحياة مش فى الراحة والأمان ، ياما حاتشبع راحة لما حاتموت ، ساعتها حاترقد على جنبك ما تغيروش بدل السنة ألف

سنة ، منتهى الاستقرار ، الحياة مش راحة ، الحياة تعب وأخطار ومغامرة ومجازفة .

كلام معقول ، لكن الحر أقوى من أى معقول ، والصداع الذى يدق فى رأسى ، والعرق والوهج الذى يعمى العين ، وأجفانى التى بدأت تثقل ، كل هذا كان يجعلنى لا أفهم شيئاً ، وألعن اليوم الذى سلمت فيه قيادى لهذا المجنون ..مغامرة إيه .. وأخطاء إيه ، أنا كان مالى ومال الشقا ، وأنا حاستفيد إيه من الخشونة دى ..

وكنت أشعر بالندم لهذه الفطنة التى جاءت بعد أوانها .. فلم يعد هناك حل ، المسافة بيننا وبين القاهرة التى خلفناها وراءنا طالت وأصبح طريق العودة يكلفنا جهداً أكثر .

مفيش حل .. أمرى لله .

وكانت قد مضت عشرون ساعة منذ تركنا القاهرة خلفنا فى أسفار متواصلة .

وكنت أستعرض فى ذهنى كل قصص الرحالة الذين تاهوا فى الصحراء وماتوا من العطش ، وأكلتهم الذئاب ، وأتخيل هذه النهاية التعسة .

مَنْ يدرينى بأن صاحبى يسير فى الطريق الصحيح ، وإنه لم

يضل ، والطريق المتعرج الذى لا ينتهى يؤكد لى هذه الظنون .

ولا أثر لكشك مرور على الأفق .. أو إشارة .. أو علامة .. أو سهم يشير إلى أى مكان على الأرض ..

لا يمكن أن يكون هذا الطريق المهجور مؤدياً إلى شىء . !

وإذا انسدل علينا الظلام ونحن نخبط فى هذا الخواء ، ماذا نفعل ، ننام فى السيارة ، وإذا طالت الرحلة دون أن نعثر على راحة أو نبع ماء ؟ .

وإذا انتهت المؤنة وفرغ الزاد .

وإذا انفجرت إطارات العربة ، وهى لابد منجرة إذا استمر سيرنا بهذه السرعة على هذا الرمل الملتهب ساعة أخرى .

وأدرت بصرى فى الجهات الأربع باحثاً عن معالم المدينة . لا شىء حتى ولا عمود تلغراف ، خواء تام ، وعزلة كاملة .

لو حدث لنا شىء فى تلك اللحظة علينا العوض .. وبنظرة واحدة إلى تموييننا من الطعام والشراب ، أيقنت من الكارثة ، إنه يكاد يكفينا يومين مع الاقتصاد الشديد وبعد هذا ..

نربط الأحزمة على بطوننا ، ونموت ببطء .

وطار عقلى شعاعاً ..

وفكرت أن أكاشف صاحبى بهذه الظنون ولكنى آثرت الصمت حشية أن تكون الظنون فى محلها ، فأفقد البقية الباقية من شجاعتى .

ولاحظت أن العربة بدأت تبطىء فى سيرها فحمدت لصاحبى حسن تصرفه فهو لا شك يخفض من سرعة السيارة حتى لا ينفجر الكاوتش فى هذا الحر القاتل ..

ولكن العربة أبطأت أكثر وأكثر ثم وقفت تماماً .

واستدار صاحبى ليواجهنى وكان وجهه شاحباً بلون الشمع ، وقال بصوت لاهث ..

- البنزين خلص ..

وظننت فى البداية أنه يمزح ، ولكن وجهه الذى غاض منه الدم، وأطرافه المثلجة ، ونبراته المتهدجة ، أكدت لى أن الكارثة حقيقية وليست مزاحا .

بنزين السيارة نفذ ..

معنى هذا أننا باقون فى مكاننا إلى ما شاء الله ، رهن القدر

ورهن الصدفة التى تسوق لنا مَنْ ينقذنا .

وسقط قلبى فى ضلوعى ولكنى تمالكت نفسى وقلت فى غضب :

– وازاى البنزين يخلص ، وكنت فين طول الوقت ؟

– كنت عامل حسابى إن إحنا حانوصل بلدة أم كمام ، ومن هناك نملأ بنزين زى ما إحنا عاوزين ونستأنف رحلتنا ، لكن الطريق اللى خدته طلع بيه على سكة تانية غير سكة أم كمام .

– وبعدين ..

– ولا قبلين .. ننتظر الفرج ..

قصدك ننتظر الموت ..

وكان قد أشعل سيجارة وعاد إلى لماضته المعهودة .

– الموت عمره ما ييجى فى المناسبات اللى زى دى ، أبويا اشترك فى حرب فلسطين وحرب القنال وقاد كتيبة فدائية فى بورسعيد ، وحارب مع الصاعقة ، والآخر مات فى البانيو غرقان فى شبر ميه .. بدون حرب وبدون ضرب ..

وكان يدخن فى هدوء وبلا مبالاة ، فشعرت بالخجل ..

وضغطت على أعصابى حتى لا أبدو ضعيفا ، وأشعلت سيجارة ومضيت أدخن فى صمت وكأنى نسيت الموضوع تماماً ، والحقيقة أنه لم يكن لى شاغل طوال هذا الوقت سوى التفكير فى الموت ، وفى حلقى وهو جاف كعود الحطب وبطنى وهى خاوية تعض على الهواء ، وجثتى وهى ملقاة فى العربة تحوم حولها الطيور الجارحة .

أعوذ بالله ..

وأمسح على جبهتى ..

هل أنا فى حلم ، هل أنا فى كابوس ، أم أننا ضائعان فعلا بين الأرض والسماء ؟

وأتفلت حولى ، وأحسب فى ذهنى الطريق التى قطعناها ، والمدة التى يمكن أن أستغرقها لو قطعت هذا الطريق عائدا على قدمى ، والمؤونة ، وأخطار السير فى العراء ، ثلاثة أيام .. أربعة أيام .. وعلينا أن نحمل الخيام لنبيت فيها .. غير ممكن .. إنه يكون جنوناً فالماء لا يكفى ، والسير فى مثل هذا الحر القاتل فى هذه الصحراء التى ليست بها بقعة ظل - انتحار ، وسوف نقطع الكيلومتر فى يوم ، ولا فائدة .. لا يوجد حل سوى انتظار المعجزة .

وقرأت الشهادتين وأغمضت عينى ، ثم فتحتهما على صوت صديقى يتحدث مرة أخرى فى لماضة ..

- إيه رأيك فى التجربة الجميلة دى .. أراهنك أنك حاتعيش كل عمرك تحكى عنها ، وتقول .. يوم ما واجهنا الموت ، وشفنا الأهوال ، وكافحنا الجوع والعطش ، هى دى الخشونة اللى حاتربى فيك العزم والاحتمال ، وحاتعمل منك راجل تانى غير الراجل الطرى بتاع زمان ، وآدى رهان إن ماكنت حارتجع تقوللى بالله بينا نسافر تانى .

مفيش ألذ من حياة الأخطار ..

وكنت مازلت أهدهد أملاً عزيزاً بأن صاحبى يمزح ، أخطار إيه.. هو فيه حد عاقل يروح النار برجليه مش معقول ..

واتلفت حولى فى العربة باحثاً عن صفيحة بنزين أو تنك يخفيه صاحبى عن عينى ليدخل فى روعى أننا مشرفان على الهلاك ، أبداً .. لا يوجد أثر بنزين .. ولا رائحة بنزين ومؤشر الوقود فى العداد ينام على الصفر ..

وقمت بنفسى أفتش العربة وأفحص الخزان ..

لا توجد فيه نقطة واحدة ..

إن المسألة ليست نكتة ..

إننا معزولان وسط الصحراء على بعد ألف وستمائة كيلو متر من القاهرة بلا مواصلة وبلا تموين ، على طريق مهجور لا يطرقه إنسان أو حيوان ، ومصيرنا الهلاك ..

وتكومت على الرمل فى ظل العربة ووضعت رأسى بين كفى ، وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وحرارتها تفتر شيئاً فشيئاً .. وتوهجها ينطفىء قليلاً ، ومع كل انطفاءة من هذا النور كان الأمل ينطفىء فى نفسى ، لا فائدة .. الظلام يزحف ..

الظلام الذى يبتلع فى جوفه كل الرؤى وكل الآمال ..

وكان الرجل الخشن جالساً فى السيارة يدخن بلا مبالاة .. والشمس تهبط رويداً رويداً ، وقلبى يهبط معها فى ضلوعى .. وخطر لى أن أصرخ بأعلى صوتى ..

ونزل صاحبى من السيارة وجلس إلى جوارى .

ونظرت فى وجهه أبحث عن الخوف والرعب ، كان يبدو متماسكاً وإن كانت أصابعه تقبض على السيجارة بعصبية ، وقلت له وأنا أشير إلى الشمس التى تغرب .

– حاتعمل إيه فى الليل اللى جاى علينا .

- ولا حاجة حاناخد تعسيلة ونريح دماغنا .

- تعسيلة إزاى .. ولو طلع علينا ديب واحنا نايمين ..

- الديب ده أمره سهل ، ياريت كل مشكلتنا هى الديب وأخرج من جيبه علبه ثقاب وأشعل منها عوداً .

- آدى حكاية الديب ، تولع فى وشه عود كبريت يجرى زى القطة ، مفيش حاجة تخوف الديب قد النار ..

- طيب والثعبان ، لو لدغنا ثعبان .

- ولا يكون عندك فكرة ، أنا معايا مصل ثعبان وعقرب فى شنطة الإسعاف .

وشعرت بالاطمئنان لأنى مع رجل يعرف كيف يتصرف فى كل مشكلة وسلمت أمرى لله .

وانحدرت الشمس خلف الأفق ، واصطبغ كل شىء بلون رمادي، وسرت فى جسدى رجفة ، ولم أستطع أن أكتم القلق الذى ساورنى .

- واحنا حانقعد كده مستنين لحد إمتى ، ومعقول حد حايعدى فى الطريق المخروب ده .

وأجاب صاحبى فى هدوء ..

- أمال الأسفلت ده معمول علشان إيه ..

وأشار إلى آثار كاوتش عريض إلى جوارنا ..

- آمال العربية دى إيه ؟ ده طريق عمومى .. كل ساعة بتمر بيه عربية ..

وسرى فى الشعور بالاطمئنان والهدوء ، ورأيت نفسى أصفر بفمى ، وكأنى فى شارع الكورنيش .

ونزل الظلام .. وشعرت بالائتناس بصوتى وأنا أصفر .. وشيئاً فشيئاً بدأت ألاحظ أن هناك صوتا آخر غير الصفير الذى أحدثه بفمى .

وأرهفت السمع . كان هناك عواء ذئب . عواء مخنوق مسعور .

وحدث كل شىء بعد هذا بسرعة لم تدع لى فرصة للتفكير ..

طوقت العربة قافلة من الأشباح كأنها انشقت عنها الأرض .. قافلة من الذئاب .. تنبح .. وتلهث .. وتعوى ..

وغطس صاحبى تحت العربة من الذعر .. وقد نسى حكاية عود الثقاب الذى يخيف الذئاب ويحولها إلى قطط ..

وحينما التصقت بهيكل العربة لأواجه هذه الوحوش الشرسة فوجئت بأنى أمام عدد من الكلاب الأليفة تتشمم ثيابى وتلعقها .. وكان يقف وراءها أعرابى .

ولم يكن بينها ذئب واحد .

وناديت على صاحبى فى فرحة .

ولكنى لم أسمع جواباً .

واقتضانا الأمر مجهوداً شاقاً ، أنا والأعرابى حتى نجره من تحت العربة وكان مغمى عليه .

وحينما أفاق كان يهذى من الرعب ..

■ ■ ■

وكنا وش الفجر حينما استطعنا أن نمون العربة بالنزين وتعود أدراجنا فى طريق القاهرة .

وكان أسعد جزء فى هذه الرحلة هو طريق العودة ، وأنا جالس أمام عجلة القيادة أقود الساعات الطويلة ، وأبتسم من وقت لآخر لنفسى وأنا أنظر بجانب عينى إلى صاحبى الذى جلس صامتاً كالصنم لا يتكلم عن الخشونة ، ولا عن حافز الحياة ، ولا عن

فلسفة الموت والأخطار ، ولا عن الناس الذين يعيشون حياة رخوة طرية كحياة النساء المترفات .

ومع هذا فقد كان ثمة اعتراف اعترفته بيني وبين نفسي لوجه الحقيقة ، فما أكثر ما غيرتني هذه الرحلة ، وهذه النصائح التي سمعتها من مدرسي الفاشل ..

والبرغم من كل شيء .. ما ألذ حياة الأخطار ..

الجمعة
٢٥ يوليو ٢٠١٠م
الرياض
٢:٢٠م
اهداء الجميع
لكل زوار مكتبتي
والكل

الفهـــرس